جامعة قاصدي مرباح ورقلة

UNIVERSITTE KASDI MERBAH OUARGLA

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

FACULTE DES LETTRES
ET SCIENCES HUMANES

قسم اللغة العربية وآدابها

DéPARTEMENT DE


رقم الترتيب ........

رقم التسلسل .......

مذكرة من متطلبات شهادة

**المـــاجستيـــــر**

في الأدب العربي

**تخصص: أدب جزائري قديم**

إعداد الطالب :


**أيـــوب بن حــــوّد**


# أدب المناقب في كتاب "سكردان السلطان" لابن أبي حجلة التلمساني

**نوقشت بتاريخ : 11 / 10 / 2009 م**

أمام لجنة المناقشة المكونة من :

د : أحمد موساوي أستاذ محاضر جامعة قاصدي مرباح ورقلة رئيسا

أ. د: مشري بن خليفة أستاذ التعليم العالي جامعة قاصدي مرباح ورقلة

د : لخضر لعرابي أستاذ محاضر جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان مناقشا

د : بلقاسم مالكية أستاذ محاضر جامعة قاصدي مرباح ورقلة مشرفا

**الملـــخص :**

يهدف هذا البحث الموسوم بـ " أدب المناقب في كتاب سكردان السلطان " إلى تقديم صورة عن أدب المناقب .

ولأجل ذلك اخترنا في الفصل الأول الكلام عن أدب المناقب من حيث المفهوم والجذور؛ من خلال تتبع حركة التأليف في موضوع المناقب عبر العصور .

وفي الفصل الثاني بحثنا في الأبعاد الثقافية والتجليات الكلامية في نص المناقب ( كتاب سكردان السلطان ) .

وفي الفصل الثالث حاولنا الكشف عن بعض الظواهر الأسلوبية التي تميِّز هذا الشكل من النصوص .

وأنهينا البحث بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

**REZUMER**

Cet escpose sons le titre de la caractères humains dans le livre de « SEKREDAN LE SULTAN » permet der donner une image sur la littérature caractères humains pour cet raison dans le première partie on a choisi de parler sur le racines et le sens en suivant chemin des écrivains dans ce thème durant des siècles passés .

Dans la deuxième partie on a cherché dans le domaine cullurel et les changements paroliers dans les lextes de le livre « SEKREDAN LE SULTAN » .

Dans la troisième partie on a essayé de chercher dans le type et les caractéristiques littéraires dans ce genre de texte .

Puis on a termine par une conclusion sur les résultats obtenus dans cet escpose .

# إِهْـــــدَاء

إِلَـى

مَنْ كَانَ

بَطْنُهَا لِـي وِعَاءً

وَثَدْيُهَا

لِـي سِقَاءً

وَحِجْرُهَا لِي وِقَاءً

وَحَيَاتُهَا لِي فِدَاءً

...

أُمِّـــــــي

# شُكـر وعِرفـان

أشكر الله عز وجل الذي رزقني السمع والبصر والفؤاد، والصحة والعافية لإتمام هذا العمل .

ثم والدتي التي تعبت لأستريح، وسهرت لأنام، وحرصت أن أتميّز بين بقية الأنام، والسعيد قريشي، الذي علّمني القراءة والكتابة والحساب .

وأستاذي المُشرف بلقاسم مالكية الذي تعلمت منه حب المطالعة، وأن خير جليس في الدنيا كتاب.

وكل أساتذتي بكلية الآداب،على الاحترام وحسن المعاملة، وكل زملائي الطلبة، والطالبات، وجميع الأصدقاء، والأحباب .

أيوب بن أحمد بن حوَّد

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين نبيينا محمد بن عبد الله، وعلى اله وصحبه أجمعين.

إن أدب المناقب الذي نروم البحث فيه، يشكل أحد الأشكال التعبيرية التي تميز الأدب العربي، والمغاربي خاصة .

وجاء اختيارنا للموضوع " أدب المناقب" لدواعي عديدات لعل من أبرزها:

– جدة الموضوع، فهو في حدود علمنا– من الموضوعات المنسية في مجال الدراسات والبحوث الجامعية، والتي لم تنل حقها من البحث والدراسة.

– رغبتنا في كسر التقاليد المتوارثة عبر أجيال في الدراسات الأدبية والأكاديمية، التي تقصر البحث الأدبي، على أجناس أدبية محدودة مثل : الشعر، والقصة والرواية.

– توفر المناقب على البعد الأخلاقي للأدب، المفهوم الذي غيبته النظريات الحديثة والمعاصرة، وجعلت منه عنصرا هامشيا.

أما اختيارنا لكتاب "سكردان السلطان" لابن أبي حجلة التلمساني كمدونة لموضوعنا فيعود إلى سببين:

أولهما: تميز الكتاب من حيث محتواه، وطريقة بنائه، وقد أقامه صاحبه على العدد سبعة، وهي طريقة متميزة لم نعهد مثلها في غيره من الكتب.

وثانيهما : إن الكتاب يعطينا صورة عن الأدب العربي في العصر المملوكي وهي مرحلة مهملة في تاريخنا الأدبي مازالت في حاجة إلى رسم معالمها، وتبيان مواطن الضعف والتميز في أدبها.

وقد عرضت لتعاملنا مع هذا النص إشكاليتان أساسيتان:

الأولى: إشكالية التجنيس، فالنص المنقبي نص مركب، يحتار من يتصدى لدراسته في أي جنس أدبي، أو حقل معرفي يدرجه هل هو تاريخ أم هو حكاية خرافية، أم هو كرامات أم هو تصوف أم هو أساطير؟ إلى غير ذلك.

والثانية: إشكالية المقاربة والتحليل. كيف يمكن سبر أغوار هذا الشكل من النصوص؟.

ولهذا وجدنا صعوبة كبيرة في رسم خطة مناسبة لمقاربة الموضوع ، وبعد أخذ ورد اهتدينا إلى تقسيم البحث على ثلاثة فصول :

فصل أول وسمناه ب "أدب المناقب وسكر دان السلطان" لاعتقادنا بأن هذه الصيغة " أدب المناقب "تطرح عدة تساؤلات، وهو ما لمحناه في خطوات البحث الأولى، حيث كان السؤال: ما المقصود بأدب المناقب؟ يواجهنا بإلحاح.

وقسمناه بدوره على مبحثين:

المبحث الأول : بحثنا فيه مفهوم أدب المناقب.

وفي المبحث الثاني : حاولنا تقديم كتاب "سكردان السلطان" من حيث محتواه ومنهجيته .

وفصل ثاني : خصصناه لاستجلاء الأبعاد الثقافية والتجليات الكلامية التي تضمنها هذا النص المنقبي.

و قسمناه هو الآخر على مبحثين:

الأول: عددنا فيه أهم الأبعاد الثقافية الكامنة في هذا النص وهي البعد المنقبي، والبعد الديني، والبعد الرمزي الأسطوري، والبعد السياسي، والبعد التاريخي، والبعد الجغرافي، والبعد الحضاري .

أما الثاني: والموسوم بالتجليات الكلامية، فعرضنا فيه لجملة الأنواع الخبرية الأصول، الثابتة في هذا النص، وهي: الخبر من حيث مقاصده، والحكاية، والقصة والسيرة.

وفصل ثالث: وسميناه بالنص المنقبي مقاربة أسلوبية إحصائية وقسمناه على ثلاثة مباحث.

خصصنا المبحثين الأول والثاني منه لتحليل بعض النصوص الشعرية من خلال بعض مستويات التحليل الأسلوبي :

المستوى الصوتي: (وحللنا فيه الموسيقى الخارجية بعناصرها الثلاث : الوزن، والقافية، وحرف الروي، والموسيقى الداخلية من حيث موسيقى الحروف، وتكرار الكلمات).

والمستوى التركيبي : وحللنا فيه تراكيب الجمل، و تحولات الضمائر.

أما المبحث الثالث والأخير فآثرنا أن نركز فيه على دراسة خاصية أسلوبية محددة وهي خاصيتي تنوع المفردات.

محاولة منا للكشف على قدرة الكاتب على التنويع في المفردات التي يوظفها، ومن ثم عن رصيده اللغوي.

وأنهينا البحث بخاتمة سجلنا فيها بعض الملاحظات، والتساؤلات لعلها تفتح أفقا جديدا للبحث.

ولأن كل دراسة علمية تتوخى تحقيق الدقة والموضوعية، لابد لها من منهج واضح المعالم تستند عليه اعتمدنا في دراستنا منهجين:

– منهج تاريخي رأينا انه يناسب الفصلين الأول والثاني حيث انتهجنا طريقة التتبع والاستقراء، وربط بعض النتائج بسياقات محددة.

– بعض آيات المنهج الأسلوبي الإحصائي في الفصل الثالث حيث رغبنا في كشف بعض الظواهر الأسلوبية التي تميز هذا النص.

وقد جابهت البحث بعض العقبات التي كادت توقف مسيرته لعل أبرزها : صعوبة الموضوع نفسه، الذي يطرح إشكالات عديدة سواء على مستوى تحديد فضائه المفهومي، أو في طريقة تناوله، إضافة إلى قلة المراجع خاصة ما تعلق منها بالتنظير لهذا النوع من الأشكال التعبيرية التي لا تزال منسية في ثقافتنا الأدبية.

ومع ذلك لا يفوتنا التنويه بدراسة محمذن ولد محبوبي الموسومة ب" أدب المناقب والكرامات في بلاد شنقيط"وهي رسالة دكتوراه مرقونة بجامعة وهران، قدمت في الموسم الجامعي(2003/2002م)، وله فضل السبق علينا في طرق هذا الموضوع، وقد أفدنا من دراسته بعد اطلاعنا على جزء كبير منها، غير أن بحثنا يختلف عنها من أوجه :

الأول :من حيث المدونة : فالمدونة في بحثنا محددة في كتاب واحد محقق تحقيقا علميا، في حين اعتمدت الدراسة السابقة على مدونات كثيرة أغلبها مخطوطات قام الباحث نفسه بتحقيقها.

والثاني: بحثنا محدد موضوعه "المناقب"، بينما جمع البحث السابق بين المناقب والكرامات.

والثالث: إن البحث السابق لم يقدم مفهوما واضحا للمناقب في حين أسهب في الحديث عن الكرامات، وهو ما دفعنا إلى الحرص على إبراز المناقب كمفهوم له خصوصيته في هذا البحث.

كما أفدنا من مجموعة من المصادر والمراجع على قلتها، منها: كتاب المستفاد في مناقب العباد لأبي عبد الله التميمي، كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر

العسقلاني، وقال بعنوان: مشكل المنهج في قراءة بعض الكتابات المنقبية بالمغرب للدكتور عبد الله أحمد بن عتو، وكتاب (7) سبعة الرقم المقدس لفتحي فطوم، وكتاب في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية لسعد عبد العزيز مصلوح وغيرها.

وعرفانا بالجميل نتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف "بلقاسم مالكية" على ما بذله معي من مجهود، وما قدمه لي من توجيهات، وكل من أعانني على إتمام هذا العمل المتواضع، وكل من رضي أن يقرأه بقصد تقويمه، وبيان مواطن النقص فيه والله المستعان وعليه التكلان .

تم بحمد الله ظهيرة الجمعة

18-04-2008 الموافق لـ13- 06-1429 هـ

# الفصل الأول

# أدب المناقب وسكردان السلطان

نسعى في هذا الفصل إلى التأصيل لأدب المناقب في تراثنا الأدبي والثقافي، الأمر الذي يستدعي التعريف بهذا المفهوم، وكشف مظاهره وأشكال حضوره في التراث.

## المطلب الأول : مفهوم أدب المناقب :

أ/– **مفهوم الأدب :** إن كلمة " أدب" على رواجها، وكثرة تداولها في الدراسات الأدبية والنقدية، لا زالت تكتنفها بعض الضبابية وعدم التحديد تجعلنا في غالب الأحيان حائرين في تمييز النصوص الأدبية من غيرها.

وهو ما دفعنا إلى تقصي الكلمة واستقرائها في المعاجم العربية، والنتاج الشعري والنثري.

جاء في اللسان في مادة "أدب": " الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس؛ سُمِّيَ أَدَباً لأنه يأْدِبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح.

وأصل الأدب الدُّعاء [...]. والأَدَبُ : الظَّرْفُ وحسن التناول، وأدَّبَه فتأَدَّبَ : عَلَّمه، والأُدْبَةَ والمأْدَبَةُ والمأْدُبَةُ كل طعام صُنِع لدعوة أو عُرس.

وفي الحديث عن ابن مسعود : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مأْدَبَةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مأْدَبَتِهِ يَعْنِي مَدْعَاتَه.

والأَدَبُ مصدر قولك أَدِبَ القوم يأْدِبُهُم، أَدْباً، إذا دعاهم إلى طعامه، وأَدَبُ البحر كثرة مائه.

والأَدَبُ العَجَبُ، قال الأصمعي : جاء فلان بأمر أَدْبٍ أي أمرٍ عجيب"[1]. ويكرر صاحب القاموس المحيط المعاني نفسها الواردة في اللسان، في حين يضيف صاحب دائرة معارف القرن العشرين[2] معنى آخر لم نجده في اللسان؛ وهو قوله : "أَدَّبَهُ بمعنى عَاقَبَهُ أي رَدَّهُ إلى الأَدَب".

ونخلص إلى أن مادة " أدب" كما وردت في المعاجم العربية، تدور حول سبع معاني أساسية، وهي :

1 – الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

2– الدعوة إلى الطعام أو العُرس.

3 – الظرف وحسن التناول.

4– التعليم.

---

[1]– ابن منظور : لسان العرب : تح : عامر أحمد حيدر، مادة " أدب "، حرف الباء، فصل الألف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م – 1424 هـ.

[2]–محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين، مادة "أدب"، ج1، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط03، 1971م.

5 – كثرة ماء البحر.

6 – العَجَب.

7 – العِقاب.

أما المفهوم الذي نشأ عن الخبرة العميقة والاستعمال في نظم الشعرأو الكتابات النثرية "فقد عرف أربعة أطوار، كان كل طور منها يضيف إلى المفهوم جديدا، أو ينقله عن طريق المجاز إلى دلالة أخرى من غير أن ينسخ طور استعمال معنى الطور السابق.

فقد كان الطور الأول هو طور المعنى الخُلُقي والسُّلوكي الذي غلب عليه اللفظ في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، والثاني هو طور المعنى التعليمي والتربوي الذي ظهر في العصر الأموي، والطور الثالث هو طور المعنى الثقافي أو التثقيفي الذي ساد في العصر العباسي حين أصبح الأديب هو الكاتب الذي يأخذ بكل علم بطرف، وأصبح الأدب هو الثقافة المدنية أو الحضارية التي فرضتها طبيعة اللقاء الثقافي بين العرب وغيرهم.

والطور الرابع هو طور المعنى الفني الذي عبر عنه ابن خلدون في المقدمة بوضوح حينما اعتبر الأدب صناعة فنية وملكة لسانية، وهو المعنى الذي سيزداد عُمقا في العصر الحديث" [3].

فمفهوم الأدب في رحلته التاريخية التي امتدت عبر خمسة عشر قرنا أو يزيد اكتسب ثلاثة معان رئيسية كما رأينا، وهي :

المعنى الخُلُقي التربوي والسُّلوكي، والمعنى الثقافي والمعرفي، والمعنى الفني أو الجمالي.

ويُطلِق البعض لفظ الأدب على معنيين: "... معنى عام، ومعنى خاص، فالمعنى العام دلالته على جميع ما صنِّف في أيّ لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية فتشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء، وقرائح الكتاب والشعراء، وعلى هذا المفهوم بنى المستشرق الألماني كارل بروكلمان موسوعته القيّمة عن تاريخ الأدب العربي، ومن ثم وسّع نظرته إلى حد شملت فيها التاريخ والرحلات والسير والتراجم والشعر والنثر الفني والكتابات الدينية.

---

[1]– محمد الكتاني : مفهوم الأدب في أبعاده الثلاثة، الأكاديمية (مجلة أكاديمية المملكة المغربية)، العدد 12، 1995.

والمعنى الخاص يُراد به التعبير عن مكنون الضمائر ومشبوب العواطف، وسوائح الخواطر بأسلوب إنشائي أنيق مع الإلمام بالقواعد التي تعين على ذلك، فأصبح لفظ الأدب اليوم اصطلاحا على هذين المعنيين "[4].

و يستوعب مفهوم " الأدب" ـ في اعتقادنا ـ المعنيين : المعنى العام والمعنى الخاص ولا غرابة في أن يشتمل النص الأدبي على الأخلاق والمعرفة، والجمال والفن في آن؛ إذ هي عناصر يُكَمِّل بعضها بعضا، ولا تنافر بينها كما يتصوره البعض.

## ب/- مفهوم المنقبة :

تحدث صاحب اللسان بإسهاب عن مادة " نقب" ومما جاء في ذلك : " نَقَبَ : النَّقْبُ : الثَّقْبُ في أَيّ شيء كان، نَقَبَهُ يَنْقُبُهُ نَقْباً، والمَنْقَبُ والمَنْقَبَةُ، كالنَّقْبِ والمَنْقَبُ والنِّقَابُ : الطريق في الغلظ.

والمَنْقَبَةُ : الطريق الضيِّق بين دارين، لا يُستطاع سلوكه، والنَّقيبة : النَّفْسُ؛ وقيل: الطبيعة وقيل : الخَلِيقَة.

ونَقَّبَ عن الأخبار وغيرها : بَحَثَ؛ وقيل : نَقَّبَ عن الأخبار: أَخْبَرَ بها، وفي الحديث : إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلوبِ النَّاس أي أُفَتِّشَ وأَكْتَشِفَ.

وقولهم : في فلان مناقب جميلة أي أخلاق، وهو حسن النَّقيبة أي جميل الخَلِيقة، وإنما قيل : للنَّقيب نقيب لأنه يعرف دخيلة أمر القوم، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم.

قال: وهذا الباب كله أصله التأثير الذي له عمق ودخول؛ ومن ذلك يُقال : نَقَبْتُ الحائط أي بلغت في النَّقْبِ آخِره"[5].

فالمناقب عموما تدور حول معاني الخُلُق الكريم، والسُّلوك السليم.

"والشائع فيها (المناقب) أن تدل على كرم الفعل ومفاخر الأعمال والخلق الحسن؛ كونها تنسب عادة إلى صالحي العباد"[6].

---

[4]- السيد تقي الدين : الأدب ماهية وفائدة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت، 8، نقلا عن : أحمد حسن الزيات: في أصول الأدب.

[5]- ابن منظور : لسان العرب، مادة " نقب"، حرف "الباء"، فصل " النون".

[6]-سعيد يقطين : المرجع السابق، 196.

ولعل هذا مادفع البعض إلى اعتبارها " أخباراً و حكايات تخص الصحابة والصالحين من العباد"[7].

ومع ذلك "فالاضطراب واضح الآن بين اعتبارها خرافات أو حكايات خرافية أو كرامات أو مناقب أو أساطير إلى غيرها من النعوت والصفات"[8].

فهل هي خُرافات أو حكايات خُرافية؟

إن الحكاية الخُرافية " تشير إلى فن قصصي يدل على أحداث خيالية مروية على لسان الحيوان أو للدلالة على أحداث عجائبية أوغرائبية خارقة أو أحداث مع الجان"[9]. إضافة إلى أن الحكايات الخُرافية عادة تدور حول شخصيات عامة غير معروفة، في أزمنة وأمكنة مجهولة.

وهكذا نلاحظ أن الحكايات الخُرافية تتقاطع مع المناقب في بعدها العجائبي خاصة ومع ذلك فإننا نستبعد إدراجهما في حقل واحد وذلك لسببين :

**أولا** : إن المناقب تتحدث عن أحداث واقعية ولا علاقة لها بالخيال، وإن شابها بعض الغلو والمبالغات.

**ثانيا** : إن المناقب تتحدث عن شخصيات معروفة لها وجود حقيقي في التاريخ، وأزمنة وأمكنة معلومة.

فهل هي كرامات ؟

إن الكرامة بوصفها "ظهور أمر خارق للعادة من قِبَلِ شخص غير مقارن لدعوى النبوة مقرون بالإيمان، والعمل الصالح" في مقدمة الأشكال التعبيرية التي يصعب تمييزها عن المنقبة، وهو ما دفع بعض الدارسين إلى عدم الفصل بينهما أصلا.

بيد أننا نعتقد أن المنقبة أشمل من الكرامة لاعتبارين أساسيين، وهما :

أولا : أن المنقبة تدل على كرم الفعل، والخُلُق الحسن، وهي معاني واسعة، ولا يعِزُّ وجودها في حياة الناس، بينما الكرامة في دلالتها على الأمر -"الخارق للعادة الذي يظهر

---

[7]- نفسه، نفسها.

[8]- عبد الله أحمد بن عتو : مشكل المنهج في قراءة بعض الكتابات المنقبية بالمغرب، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الأول، سبتمبر 1996 م.

[9]- ينظر: عبد الله أبو هيف : مصطلحات تراثية للقصة العربية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 48، السنة 12، تموز ( يوليو) 1992 م . المحرّم 1413 هـ.

على عبد ظاهر الصلاح في دينه متمسك بطاعة الله في أحواله" – تقتصر على معاني أكثر تحديدا، و شيوعها نادر بين الناس.

ثانيا : أن المنقبة لا تختص بفئة معينة من المجتمع، وإن كان الغالب ارتباطها بالعلماء، والصالحين. في حين تقتصر الكرامة على فئة الأولياء دون سواهم.

فهل هي أساطير؟

إن الأسطورة "بوصفها مجموعة الحكايات الطريفة المتوارثة منذ أقدم العهود الإنسانية، الحافلة بضروب من الخوارق والمُعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع، ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية اعتقد الإنسان الأول بألوهيتها"[10].

نلاحظ أن الأسطورة بهذا المفهوم وإن اشتركت مع المناقب في احتوائها على جملة من الحكايات الطريفة والمتوارثة الحافلة بضروب من الخوارق فإنها تختلف معها اختلافا بيِّناً في ارتباطها بالخيال، وعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية اعتقد فيها الإنسان الأول اعتقادات باطلة تنافي خصوصية الثقافة الإسلامية، هذا الفضاء الذي نشأ فيه هذا الشكل من النصوص، إضافة إلى أن الأساطير رديف لكل ما هو باطل وغير حقيقي، وليس الأمر كذلك مع المناقب.

فهل هي تاريخ؟

إذا علمنا أن "التاريخ ذلك العِلم الذي تُعرف به أحوال الماضيين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم، ولغتهم، وعاداتهم، ونظمهم، وسياستهم، واعتقاداتهم وآدابهم حتى يتم بذلك معرفة أسباب الرُّقي والانحطاط في كل أُمَّة وجيل "[11].

إن التاريخ يختلف عن المناقب من ثلاثة أوجه :

**أولهما** : إن التاريخَ عِلمٌ، والمناقب لا ترقى إلى درجة العِلم.

**ثانيهما** : إن هدف التاريخ تقديم صورة شاملة عن الحياة في ظروف زمنية محددة بينما يقتصر دور المناقب على إبراز جزء مُضيء في حياة عَلَمٍ من الأعلام.

---

[10]– أنس داود : الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ط3، دار المعارف، مصر، 1992 م، 19.

[11]–عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4، 1400 هـ، 1980 م، 16.

**ثالثهما** : إن التاريخ يحرص على ربط كل حدث بزمنه المحدد بدقة، وليست هذه من أولويات المناقب.

وتأسيسا على ذلك فإن المناقب لا يمكن اعتبارها تاريخا وإن اشتركت معه في بعض الخصائص.

فهل هي تصوُّف؟

إن من معاني "التصوُّف الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا، فيرى حُكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمُتأدِّب بالحُكمين كمال، وقيل : بذل المجهود والأنس بالمعبود، وقيل : حفظ حواسِّك من مراعاة أنفاسك وقيل : الإعراض عن الاعتراض، وقيل : هو صفاء المُعاملة مع الله تعالى، وأصله التفرُّغ عن الدنيا، وقيل : الصَّبر تحت الأمر والنَّهي، وقيل : خِدمة التشرُّف وترك التكلُّف، واستعمال التظرُّف، وقيل : الأخذُ بالحقائق والكلام بالدَّقائق والإياسُ مما في أيدي الخلائق" [12].

وهكذا يبرز لنا أن "معظم تعريفات التصوُّف . مهما اختلفت صيغتها . تتفق في عدِّ المُتصوِّف عبدا صالحا يزهد بالدنيا من أجل الآخرة.

ودائرة الصلاح التي ينتمي إليها الصوفي هي نفسها التي تنتمي إليها المناقب "ذلك أنها هبة من الله لمن شاء من عباده الصالحين"[13].

وهكذا نلمس أن التصوُّف يُعدُّ أقرب الحقول المعرفية للمناقب، لأن البيئة الصوفية مثَّلت أرضا صالحة لنشأة هذا الصنف من الأشكال التعبيرية، لذا شاع في أدبياتنا ارتباط المناقب بالمتصوِّفة والزُّهَّاد والصالحين، ومع ذلك فإن قصر المناقب على فئة المتصوِّفة دون سواهم أمرٌ لا يخلو من شطط؛ لأن المناقب " قد تُستخدم للدلالة على مزايا المُترجم له، الاجتماعية والأدبية. فمن ذلك استخدام لسان الدين بن الخطيب للكلمة في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) عندما تحدَّث عن المجال الذي يتفرَّد به المُترجم له، مثل ترجمته لأحمد

---

[12]– الشريف الجرجاني : التعريفات، مؤسسة الحسنى، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1427 هـ –2006 م، 36 .

[13]– لؤي خليل : الكرامات في التراث الإسلامي ( النموذج الأندلسي )، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 97، السنة الرابعة والعشرون، آذار 2005 م – 1425 هـ.

بن عبد الله بن عميرة المخزومي، فقد ورد تحت عنوان (مناقبه) قول ابن الخطيب : (وهي الكتابة والشِّعر)"[14].

ولأجل هذا فإن "نص المنقبة لا يمكن اعتباره منغلقا على نفسه، بل يبقى منفتحا على أدوات ووسائل النصوص الأخرى والتي لا يتردد في إدماجها في بنيته، وهذا ما يضمن للمنقبة سلطتها وتأثيرها"[15].

ونخلص بذلك إلى أن "أدب المناقب" مفهوم واسع يشمل أخبار وحكايات الصالحين ومزايا الأعلام والنابهين حوى مآثرهم، وفضائلهم، وأخبارهم، وأشعارهم بهدف تمجيدهم وذكر محاسنهم، ورغبة في التأسّي بهم، والاقتداء بسيرهم لمن يأتي بعدهم، ويبقى عصيّا على مسألة التجنيس، لأنه في جوهره مدح، وليس بمدح، يحمل بعض سمات الرثاء وليس برثاء، يتقاطع مع أشكال تعبيرية كثيرة، ولا يُنسب إليها.

ونميّز في دراستنا هذه بين أدب المناقب ومصطلحين أدبيين آخرين كثيرا ما يقع الخلطٌ بينهما، ونعني بهما : الترجمة والسيرة.

لذا نقول : إنّ " أدب المناقب" رغم الروابط العديدة التي تجمعه بكل من الترجمة والسيرة إلا أن له خُصوصيته التي تهبه تميُّزَه.

لأن الترجمة كمفهوم " هي التأريخ للأعلام المبدعين النابهين في النتاج العلمي والأدبي وهو فن قائم بذاته "[16].

وهي كمصطلح" نستعمله إذا تناولت الدراسة الواحدة أكثر من شخص"[17].

أما السيرة : فهي : " نوع من الأدب يجمع بين التحرّي التاريخي، والإمتاع القصصي ويُراد به دراسة حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصيته "[18]. وهي كمصطلح " نستعمله إذا تناولت الدراسة الواحدة شخصا واحدا وكان محورها"[19].

---

14– نفسه.

15– عبد الله أحمد بن عتو : المرجع السابق، 243 .

16– محمد منصوري : فن التراجم والسير في كتاب زهر الآداب، مجلة الفضاء المغار بي (جامعة تلمسان) العدد2، صفر 1425 هـ / 2004 م، 229، نقلاعن : مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية، مكتبة لبنان.

17– نفسه، 230.

18–نفسه، 229.

19–نفسه، 230 .

ويتجلّى تميّز " أدب المناقب " عن كل من الترجمة والسيـرة ـ في نظرنا ـ من ثلاثة أوجه، وهي :

أولا : من حيث الأسلوب : تقتصر كتب المناقب في عمومها على ذكر المحاسـن والفضائل؛ بمعنـى أنها تركّز علـى الصفحات المضيئة فـي حيـاة المترجم لهم، ولا يهمهـا تتبـع تفاصيل الحياة كما تفعل الترجمة والسيرة.

ثانيا : من حيث اللغة : تستند لغة الكتب المناقبية ـ عادة ـ إلى لغـة الخطـاب الصوفي، وهو ما يجعلها تنزع إلى اللغة الأدبية، بينما تعتمد الترجمة والسيرة لغة علمية تقريرية غالبا.

ثالثا : من حيث المحتوى : يشكّل حشد الأخبار والقصص، والحكايات، والعجائب والغرائب خاصية مميزة تطبع كل كتاب مناقبي تقريبا، فـي حين تركّز الترجمـة والسيـرة علـى الحقائق التاريخية المتعلقة بالشخصية أو الشخصيات المحورية.

## المطلب الثاني : التأليف المنقبي في التراث الإسلامي :

لا شك أن حفظ آثار السابقين، ومناقب العلماء، والأولياء، والصالحين، وسير الملوك والأمراء، والسلاطين مهمة نبيلة تضمن تحقيق التواصل بين الأجيال.

ونحن إذ نُكْبِر في أولئك الرِّجال قيامهم بحفظ تراث الأوائل، نتساءل عن الدوافع التي حفَّزتهم على ذلك وكانت أقوى من كل الصِّعاب التي واجهتهم ؟

نعتقد أن الدوافع كثيرة ومختلفة، و في مقدمتها الدوافع التالية :

**أولا : مطلب شعبي :** يشير كثير من مؤلِّفي كتب المناقب في مقدمات كتبهم إلى أنها كانت بطلب من قريب، أو صديق، أو حبيب، أو مجموعة من الناس، كما حدث مع المقَّري مثلا في كتابه "نفح الطِّيب" الذي كان بطلب من أهل دمشق حينما حدَّثهم المقَّري عن أديب الأندلس الشهير "لسان الدين بن الخطيب" فألحُّوا عليه في تأليف كتاب يجمع أخبار هذا الأديب، فلبَّى نداءهم، والحادثة نفسها تقريبا تتكرر مع كتابه الآخر"أزهار الرياض "وهو الذي ألفه تلبية لطلب سكان بلده تلمسان الذين رغبوا في مؤلَّفٍ يضم أخبار ومناقب عَلَم المغرب الأشهر في زمانه "القاضي عياض" فأجابهم المقَّري إلى ذلك بتأليف كتابه الثاني "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض".

**ثانيا : دافع سياسي :** والمطَّلع على كتب المناقب لا يكاد يخفى عليه البعد السياسي في كثير منها؛ كونه يظهر من خلال عناوينها الموشَّحة بأسماء الملوك والسلاطين، كما هو الحال مع مؤلفات : المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ومواهب اللطيف في فضل المقام الشريف في مناقب السلطان قنصوه الغوري، وغيرها.

ويظهر أن أغلب هذه الكتب كان إما بطلب من السَّاسة (الملوك والسلاطين)، أو رغبة من أصحابها في التقرُّب إليهم.

إضافة إلى الصراع المذهبي الذي نشأ بين الفرق الإسلامية أو ما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى، خاصة بين السنة والشيعة.

"فالسنة اتفقوا على أفضلية أبي بكر ثم عمر ثم عثمان على "علي" بنفس ترتيب الخلافة، ولم يطعنوا في علي بل حرموا الطعن في كل الصحابة، واعتبروهم مثل النجوم في الهداية.

وهكذا بدأت كتابة المناقب في فضائل الخلفاء الراشدين في التراث السني في مقابل التراث الشيعي الذي يقدس علي والأئمة. إلا أن كتب المناقب السنية لم تلبث أن عرفت تنوعا في عصور التخلف والتقليد، إذ لم يقتصر الأمر على تزايد التقديس للخلفاء الراشدين، وإنما ضموا إلى دائرة المناقب أئمة المذاهب الفقهية، حيث انعدم الاجتهاد وانحصرت الحياة العقلية في ترديد ما قاله الأئمة، وأفضى ذلك إلى دخول شيوخ التصوف في مجال المناقب، فكتبوا مصنفات في مناقب وكرامات شيوخ التصوف. وأصبح ذلك عنصرا أساسيا في تدين المسلمين وحياتهم الفكرية يعبر عما يسمى بعبادة الأبطال"[20].

**ثالثا : الدافع الدّيني :** في الحقيقة المجتمع الإسلامي "مجتمع ديني بطبعه يسعى إلى الالتزام بالنص (القرآن الكريم والحديث الشريف)، والاقتداء بالنموذج (النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن صلح من التابعين). وهذا كان يقتضي ضرورة الحفاظ على كلا النمطين (النص والنموذج)، ليُستطاع العودة إليهما دائما، بعدِّهما المنهاج الذي يُفترض بالمسلم إتباعه. وقد استحدث للنص ما يُلائمه من شروط؛ من خلال تدوين القرآن الكريم واعتماد نُسخة مُوحَّدة منه في سائر الأقطار.

---

[20]–ينظر: أحمد صبحي منصور : أبو بكر الصديق ماذا تبقى منه في الفكر السني؟ مقال من موقع:

http://www.arabtmes.com/writer/ahmed/doc4html. زيارة بتاريخ: 2008/04/21م

وكذلك الأمر مع الحديث الشريف الذي ظهرت من أجله علوم خاصة،كعلمي الجرح والتعديل، أما النمط الثاني وهو (النموذج) فقد كانت السبيل إلى المُحافظة عليه هي التأليف في سيرة النبي (ﷺ)، وسيرة الخُلفاء الراشدين والتابعين وصالحي الأمة، لتبقى هذه السِّير نماذج أصلية تقاس عليها أفعال المسلمين.

ولأجل هذه الغاية جُعلت كتب المناقب التي كانت تسعى، أول ما تسعى إلى تثبيت النموذج الأصل، حيث ينبغي لكل إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلّده، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله وسيرته وصِحَّة أقواله"[21].

كما أن القرآن الكريم؛ وهو النص المقدّس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بما له من مكانة خاصة في قلوب المسلمين؛ نجده يحتوي على إشارات كثيرة تحُضُّ على الاستفادة من قصص الأنبياء والمرسلين.

قال (ﷻ): ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود : 120]. وهذا "ليكون له بمن مضى من إخوانه الأنبياء أسوة "[22] ولعامَّة المسلمين من بعده. وقال (ﷻ) : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقا نَّبِيًا﴾ [مريم : 41]. وقال (ﷻ): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم : 54].

ويبرز هذا المعنى بصورة أوضح في قوله (ﷻ) على لسان سيّدنا إبراهيم : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء : 84]. بمعنى " اجعل لي ذكرا جميلا أُذكَر به، ويقتدى بي في الخير، وقال مجاهد : يعني الثناء الحسن "[23].

وجميع الآيات كما يظهر لا تخرج عن معاني الدعوة إلى الاقتداء بالأنبياء والصالحين والحث على نشر فضائلهم، ومناقبهم بين الأجيال. ولذلك "بعث الله الرسل في أكمل الصفات الخُلقية وكان رسولنا محمد (ﷺ) نموذجا فريدا من نوعه في كل شيء"[24]. وهو ما أكّده (ﷻ) بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : 4]. ومن أجل هذا الخُلُق العظيم أمرنا

---

[21]– لؤي خليل : المرجع السابق .

[22]– ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 2003 م / 1424 هـ، 2، 478.

[23]– نفسه، 343.

[24]– ابن مريم التلمساني : مقدمة التحقيق، 14.

الله بالاقتداء بـه، فقال : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثيرًا﴾ [ الأحزاب : 21].

أما الأحاديث النبوية الواردة في هذا الباب فكثيرة، منها قوله (ﷺ) :

"اِقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي مِنْ أصْحَابِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمرَ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّار وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُود"[25].

وقوله صلّى الله عليه وسلّم : "مَثَلُ أَصْحَابِي مَثَلُ النُّجُوم بأيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ"[26].

وقوله : "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِن بَعْدي..." [27].

والدعوة إلى التأسّي بسنن الأوّلين، والاقتداء بسلوكهم يستلزم بلا شك نشر مناقبهم، وآثارهم، الأمر الذي كان مدعاة إلى التصنيف، والتأليف في هذا الباب.

فمتى بدأت حركة التأليف في موضوع المناقب ؟ وكيف ؟

نعتقد أن التأليف في المناقب بدأ مع حركة تدوين السُّنَّة النبوية، والتراث العربي الإسلامي عموما؛ أي مع بدايات القرن الثاني للهجرة.

ومن أوائل الكتب في الموضوع كتاب "المناقب" لزيادة بن قدامه (161 هـ) وكتاب "مناقب العُبَّاد من صُلحاء أهل البلاد" لعبد الله بن المبارك ( ت 181 هـ)، ثم كتاب "الإشراف في مناقب الأشراف" ـ في القرن الثالث الهجري لصاحبه ابن أبي الدنيا (208 – 281 هـ / 823 – 894 م) "ويعتبر من أوائل الكتب التي تصدت لجمع أخلاق الأشراف ومناقب النُّبلاء، ويضم (520) نصا، تشتمل على أخلاق الأشراف، وصفاتهم وسماتهم، وأخبارهم.

أراد مؤلِّفه من وراء جمعها وتسجيلها أن يحثَّ المسلمين على الاقتداء بأشراف الأمة والتحلِّي بأنبل ما أُثر عنهم من الخِلال الحميدة، والمناقب الكريمة "[28]. ثم كتاب " حلية الأولياء " لأبي نعيم الأصفهاني( ت 430 هـ) وهو كتاب ضخم اشتمل

---

[25]– حديث صحيح : الجامع الصغير رقم (1319).

[26]– الترمذي : نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تح: عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1992، 3 : 62.

[27]– رواه الطبراني وابن رجب في جامع العلوم والحِكم، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1408 هـ، 256.

[28]– يُنظر : الموسوعة الشعرية ( قرص مدمج )، الإصدار الثالث، 2003 م.

على " 800 ترجمة في آلاف الصفحات، ابتدأها المؤلف بالخليفة أبي بكر ثم بقية العشرة، ثم من داناهم من زهاد الصحابة... ثم التابعين ثم من يليهم" [29].

وقد أصبح كتاب " الحلية " مرجعا مهما؛ بل وضروريا لكثير من كتب المناقب والتصوف التي أعقبته.

وكتاب " رياض النفوس " لأبي بكر المالكي ( ت : بعد عام 484 هـ ) الذي ضمَّنه أخبار ( 270 ) علمًا من العلماء، والفقهاء، والأولياء المعاصرين للمؤلِّف، الذين سكنوا القيروان، وما حاذاها من بلاد المغرب.

وكتاب " المناقب المزيد ية في أخبار الملوك الأسدية " لأبي البقاء الحِلِّي، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس، وبدايات القرن السادس الهجري، "وقد ألَّف كتابه هذا لسيف الدولة منصور بن باديس المز يدي ملِك العرب بالحِلَّة، في تمجيده، ونشر كريم شمائله" [30].

وكتاب "في أخبار الزُّهَّاد والعُبَّاد بالأندلس" لابن عفيون الغافقي(ت: بعد عام 584هـ/1189 م).

ويليه سلسلة كتب مناقبية لعبد الرحمن بن الجوزي ( 551– 595 هـ) وهي :

"مناقب أصحاب الحديث"، و"مناقب أبي بكر"، و"فضائل عمر بن الخطاب"، و"مناقب علي"، و"فضائل عمر بن عبد العزيز"، و"فضائل سعيد بن المُسيَّب"، و"فضائل الحسن البصري"، و"مناقب الفُضيل بن عياض"، و"مناقب بشر الحافي" و"مناقب إبراهيم بن أدهم"، و"مناقب سُفيان الثوري"، و"مناقب الإمام الشافعي"، و"مناقب أحمد بن حنبل"، و"مناقب معروف الكرخي"، و"مناقب رابعة العدوية"[31].

ونستطيع أن نُدرج ضمنها كتابه "الوفا بفضائل المُصطفى صلى الله عليه وسلم" ليُمثِّل ابن الجوزي بذلك أحد رُوَّاد هذا الصِّنف من التآليف.

---

[29]– ينظر : محمذن ولد محبوبي : أدب المناقب والكرامات في بلاد شنقيط، رسالة دكتوراه مرقونة (جامعة وهران)2002–2003 م، 41 .

[30]– ينظر : الموسوعة الشعرية.

[31]– ينظر : عبد الرحمن بن الجوزي : ذم الهوى، تح : خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1424 هـ – 2004 م، 13 .

ثم كتاب "المُستفاد في مناقب العُبَّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" لأبي عبد الله عبد الكريم التميمي (ت 603 أو 604 هـ).

"وقد أودعه صاحبه مشاهداته وما اختزنته ذاكرته من أخبار حول عالم مدينة فاس وعُبَّادها"[32].

"وتتأكد لنا الأهمية التي ينطوي عليها "المستفاد" ليس في كونه مصدرا لتاريخ مدينة فاس فحسب بما يطفح به من معلومات دفينة وفريدة في نوعها في كثير من الأحيان حول الحياة الدينية للمدينة من خلال المعطيات المكثفة حول عُبَّادها وسلوكهم وتصوراتهم ومواقفهم وحياتهم اليومية...الخ، وكذا بما يكشفه من نشاط صوفي كانت تعرفه هذه الحاضرة ممارسة وتحصيلا وتدريسا، وإنما في كونه كذلك مصدرا من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب الوسيط عامة، مادام النص وثيقة اجتماعية تحوي معطيات ثمينة تخص الجوانب الاجتماعية والثقافية والنفسية للمجتمع المغربي في القرن السادس الهجري"[33].

ونضيف قيمة أخرى لكتاب "المستفاد" وهي أنه مصدر لكثير من الكتب المناقبية التي جاءت بعده، المغربية منها خاصة، سواء تلك التي ثبت نقلها عنه مباشرة مثل كتاب "الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس" لابن عيشون الشَّرَّاط (ت 110 هـ/1697 م). وكتاب "جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام بمدينة فاس " لابن القاضي (ت 910 هـ/1065 م) وكتاب " التشوُّف إلى رجال التصوُّف " لابن الزيَّات التادلِّي (ت 617 هـ).

أو تلك التي نقلت عنه بصفة غير مباشرة مثل كتاب "المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى" لأحمد التادلِّي الصَّومعي (1013 هـ/1604 م).

ويأتي بعده كتاب "الشمائل المحمَّديَّة "للإمام أبي عيسى التِّرمذي (609 – 679 هـ) وقد عدَّد فيه صاحبه شمائل النبي محمَّد صلى الله عليه وسلم من خلال مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية الشريفة، والتي ترسم لنا صورة عن حياته، وصِفاته الخِلْقية والخُلُقية وكتاب "النفحة النَّسرينية واللمحة المَرينية" لابن الأحمر (725–807 هـ/1324 1404م)، "

---

32– أبو عبد الله التميمي : المستفاد في مناقب العُباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح : محمد الشريف (قسم الدراسة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط 1، 2002 م، 136.

33– أبو عبد الله التميمي : المصدر السابق (القسم الثاني)، 11.

والكتاب في حقيقته أرجوزة مشروحة، تشتمل على (112) بيتا في تاريخ الدولة المرينية منذ قيامها وحتى إمارة أبي العبَّاس المُستنصر :أحمد بن أبي سالم المر يني الذي ألَّف الكتاب باسمه، ورفعه إليه سنة (789 هـ)"[34].

وكتاب "طبقات الأولياء" لابن المُلقِّن(723–804 هـ/1323–1401 م) وهو "من أشهر مؤلَّفات الكاتب التي سار بها رُواة الأخبار، وانتشر ذكرها في الأقطار، وهو في تراجم مشائخ الصوفية منذ منتصف القرن الثاني للهجرة إلى أوائل القرن الثامن؛ أولهم:

إبراهيم بن أدهم(ت 161 هـ) وآخرهم معاصره الشِّهاب القُونَوي(ت: بعد 787 هـ)"[35] وكتاب "مواهب اللطيف في فضل المقام الشريف في مناقب السلطان قنصوه الغوري" لابن شرف الدين المدني(ت 905 أو 910 هـ) وقد ألَّفه في تعداد مناقب السلطان قنصوه الغوري (ت 915 هـ/ 1516 م) أحد سلاطين المماليك البُرْجية، الذي ولِيَ السلطنة بداية القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي [36].

أما إذا عُدنا إلى حركة التأليف المنقبي لدى الجزائريين فنجدهم لم يتوانوا في تسطير مناقب أعلامهم؛ من علماء، وأولياء، وسلاطين، بل وأعلام العالم الإسلامي عامة.

ولعلَّ أقدم كتاب في الموضوع . في حدود ما نعلم . هو كتاب "عُنوان الدِّراية في من عُرفَ من علماء المائة السابعة ببجاية "لأحمد الغُبْريني(644 – 704 أو 714 هـ) والذي ألَّفه كما يقول : "... بحيث يعلم طالب العلم الأئمة الذين بهم يقتدي وبسلوك سننهم السَّوِّيِّ يهتدي، وإني رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عُرفَ من علماء في بجاية في هذا القرن السابع" [37]. وقد ضم الكتاب مجموعة من العلماء القاطنين أو الوافدين على بجاية في القرن السابع، وقد بلغ عددهم (108) علماء.

---

34– الموسوعة الشعرية، الإصدار الثالث.

35– نفسه.

36– المماليك البُرجية نسبة إلى أبراج القلعة حيث أنزلهم الأيوبيون وحكموا مصر(1382/ 1517 هـ ) ينظر: خالد أبراهيم يوسف : الشعر العربي أيام المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2003 م، 21.

37– أحمد الغبريني : عنوان الدراية في من عرف من علماء المائة السابعة ببجا ية، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ط1، 2007 م، 6.

إلاَّ أنه ذكر ثلاثة ممن عاشوا في القرن السادس "للتَّبرُّك باسمهم وانتشار ذكرهم"[38] وهم: الشيخ أبي مدين شُعيب (594 هـ)، والشيخ أبي علي لمسيلي(ت ؟)، والفقيه أبي محمَّد عبد الحق الاشبيلي (600–659 هـ).

وكتاب "أنس الفقير وعِز الحقير"لابن قنفذ القسنطيني (741–809 أو 810 هـ) وقد" ألَّفه في رجال من أهل التصوُّف كأبي مدين وأصحابه"[39].

وكتاب" في مناقب الأربعة رجال المتأخِّرين "لمحمد بن يوسف السنوسي(895 هـ) والأربعة المتأخِّرين هم : محمد بن عمر الهوا ري (842 هـ)، والحسن أبركان (858 هـ) وإبراهيم بن علي التازي (ت 866 هـ) والحسن الغُماري (ت 874 هـ) [40].

وكتاب " المواهب القُدسية في المناقب السنوسية " لأبي عبد الله الملا لي؛ والذي لم نقف على ترجمته ولا على تاريخ وفاته، إلا أنه عاصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي (832–895 هـ) كونه أحد تلاميذه، وقد ألَّف هذا الكتاب في تخليد مناقبه.

وكتاب " النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب "لابن صعد التلمساني (ت901 هـ) وله كتاب آخر بعنوان "روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخِّرين" وهم أنفسهم الذين ذكرهم محمد بن يوسف السنوسي في مؤلَّفه السابق.

وكتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "لابن مريم (ت 1020 هـ) ترجم فيه صاحبه لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي، ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها، وكان القصد من تأليفه كما قال : "جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات، وجمع من كان بها وحوزها، وعمالتها"[41].

وكُتب أحمد المقَّري التلمساني (983 – 1041 هـ / 1575 – 1632 م) التالية :

كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"وهو موسوعة تاريخية وجغرافية ضخمة؛ قسمه صاحبه على قسمين : تحدث في الأول منهما عن تاريخ الأندلس، ومعالمها الجغرافية، وأخبار العرب فيها منذ الفتح الإسلامي

---

[38]– نفسه : 7.

[39]– ابن مريم : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، 308.

[40]– في تراجم الأربعة المتأخرين يُنظر : ابن مريم : المصدر نفسه، 221، 74، 58، 31.

[41]– ابن مريم : المصدر نفسه، 5.

وجعل القسم الثاني لأخبار وأشعار عَلَم الأندلس البارز الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب. وكتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" والذي ألَّفه تلبية لطلب سكان تلمسان، الذين رغبوا في تأليفٍ يجمع أخبار ومآثر قاضي المغرب الشهير القاضي عياض ، وكتاب "روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش و فاس".

ويمكن ردُّ التآليف المنقبية كما استقرأناها إلى تصنيفين لا ثالث لهما :

**التصنيف الأول (كمِّي)** : بحسب عدد المترجم لهم، وينقسم على قسمين :

**أ/-مؤلَّفات جمعت مناقب فرد واحد:** وليا، أو عالما، أو سلطانا، أو أميرا،... الخ مثل: مناقب الإمام أحمد، الشمائل المحمدية، مواهب اللطيف في فضل المقام الشريف.

**ب/-مؤلَّفات جمعت مناقب مجموعة أفراد** : أولياء، أو علماء، أو سلاطين،... الخ مثل: مناقب العُبَّاد من صلحاء أهل البلاد، الإشراف في مناقب الأشراف، المناقب المزيد ي في أخبار الملوك الأسد ية، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وغيرها **التصنيف الثاني (نوعي)** : بحسب موضوع، أو مجال المترجم لهم، وينقسم على قسمين :

**أ/-مؤلفات ذات طابع ديني** : اهتم فيها أصحابها بتعداد مناقب العلماء، والأولياء والزهاد، والعُبَّاد، والصالحين، أفرادا كانوا، أو جماعات، مثل : مناقب الإمام أحمد، والمستفاد في مناقب العُبّاد، والنجم الثاقب في ما لأولياء الله من المناقب، وعنوان الدراية.

**ب/-مؤلفات ذات طابع سياسي** : جُمعت فيها مناقب الملوك والأمراء، والسلاطين مثل: الإشراف في مناقب الأشراف، والمناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية ومواهب اللطيف في فضل المقام الشريف في مناقب السلطان قنصوه الغوري، وكتاب سكردان السلطان موضوع دراستنا، فما موقعه من كل هذه التآليف ؟ وما طبيعة محتواه ؟ وما هي منهجيته ؟ وما هي الخصائص الأسلوبية التي تهبه تميُّزه ؟

## المبحث الثاني: سبب التأليف و التسمية :

### 1/- سبب التأليف :

رغم أن المؤلف ابن أبي حجلة التلمساني[42] لم يصرح بدوافع تأليف كتابه، إلا أن القراءة المتأنية للمقدمة، واستقراء في بعض المعطيات التاريخية يحيلنا إلى الأسباب التالية:

أ/– **السلطان** : لا نستبعد أن يكون السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون وراء قصة تأليف السكر دان لاعتبارات عديدة أهمها :

– أن اسم السلطان ورد في عنوان الكتاب "سكردان السلطان"، وإضافته إلى السكردان هنا ليست اعتباطية دون شك؛ بل هي دليل على أنه طرف مهم في القضية، وهو ما أشار إليه المؤلف نفسه بقوله : "... فهو ولاسيما بذكر السبع زهرات تأليف ظريف، وحضرة تصلح للمقام الشريف" [43].

والشاهد في قول المؤلف هنا "المقام الشريف" هذا الوصف في تقديرنا المقصود به السلطان حسن بالدرجة الأولى؛ لكون الكتاب هدية إليه، وهو ما ذهب إليه المحقق بقوله : "كتاب سكردان السلطان الذي نقدم له اليوم وضعه ابن أبي حجلة في بدايات النصف الثاني من القرن الثامن الهجري وأهداه إلى سلطان مصر المملوكي حسن بن الناصر بن قلاوون الذي حكم مصر في الفترة من سنة (748 هـ – 753 هـ)، ثم في الفترة من سنة (755 هـ – 762 هـ)[44].

ويؤيد هذا الرأي ما جاء في وصف محمد زغلول سلام للكتاب بقوله : "كتاب لطيف طريف آخر من كتب المؤلف، ألفه للسلطان الناصر حسن بن الناصر محمد الذي خدمه وكان من جلسائه، وقد طلب منه تأليف ديوان الصبابة..." [45].

نقول إذا كان كتاب "ديوان الصبابة" – حسب زغلول سلام – بطلب من السلطان فإن كتاب "سكردان السلطان" – في نظرنا – أولى منه بذالك لسببين اثنين :

---

[42]–هو أحمد بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد شهاب الدين التلمساني المغربي مولدا الدمشقي منشأ نزيل القاهرة الشهير بابن أبي حجلة ولد بتلمسان بلده سنة خمس و عشرين و سبع مائه 725 هـ بزاوية جده الشيخ الصالح الزاهد أبي حجلة عبد الواحد.

وتوفي في ذي القعدة سنة 776 هـ في الطاعون له مؤلفات كثيرة تزيد عن الستين من أشهرها : ديوان الصبابة، وسكردان السلطان، (ينظر : في ترجمته ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج1 ، 329– 330).

[43]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 5.

[44]– نفسه، 3.

[45]– محمد زغلول سلام : الأب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، مصر، ج2، دط، دت، 216.

**أولا : عنوان الكتاب:** نلاحظ أن " ديوان الصبابة" كعنوان يتسم بالإطلاق والعموم وهو بذلك لا يوحي بوضوح – على الأقل – على أنه بطلب من السلطان.

أما كتاب "سكردان السلطان" بعنوانه المقيَّد بكلمة السلطان يوحي كل الإيحاء بأنه بإيعاز منه.

**ثانيا : محتوى الكتاب وموضوعه** : يدور كتاب "ديوان الصبابة" حول موضوع الحب والعشق، وقد رصد فيه صاحبه طائفة كبيرة من أخبار وقصص العشاق والمتحابين وأشعار غزلية حسية وصريحة إلى أبعد الحدود، وهو موضوع نرى أنه – نسبيا– أبعد عن هوى السلطان حسن، وهو الذي نعته المؤلف بنعوت مثل "ناصر الدنيا والدين" ، و"الذي له تهجد وصيام"، و"محبة في النبي عليه أفضل الصلاة والسلام"، و"بقية السلف الصالح"[46] وغيرها من الصفات والنعوت التي تجعله من الزاهدين الورعين.

في حين نجد كتاب "سكردان السلطان" في موضوعه ومحتواه أقرب لمقام السلطان وميوله؛ كونه يحتوي – في أبوابه الأولى خاصة – على نسب السلطان، وسيرته، وسيرة أسرته؛ بل وتاريخ دولة الترك من أولها، وكذا قصص الأنبياء، وأخبار الملوك والعلماء والصالحين، وكل ما يصلح ليكون على خوان السلطان، وهو ما أبرزه المؤلف قائلا: "فهو ولاسيما بذكر السبع زهرات تأليف ظريف، وحضرة تصلح للمقام الشريف"[47]

وتدعم هذه المعطيات كلها ما نرجحه من كون السكردان كان بطلب من السلطان.

**ب/–الزمان** : يظهر أن الزمان بدوره كان عنصرا مهما – لا يمكن إغفاله– شجع على تأليف السكردان، وهو سنة سبع وخمسين وسبعمائة، خاصة وأن تأليفه هذا أقامه على العدد سبعة، الذي كان له حضوره المتميز فيه، وهو ما عبر عنه ابن أبي حجلة بقوله:

"... فلما كانت السبعة من أشرف الأعداد، وكان وجودها بمصر المحروسة أكثر من سائر البلاد، ألفت منها في هذا الكتاب سنة سبع وخمسين وسبعمائة ما لم أسبق إليه، و لا عثر أحد في الأقاليم السبعة عليه"[48].

---

[46]-ينظر : ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 70.

[47]– نفسه:5.

[3]– ابن أبي حجلة التلمساني :المصدر السابق، 5.

ونستطيع القول : إن القَدَرَ وشيء من الحظ كان إلى جانب ابن أبي حجلة حين "جعل السلطان حسن سابع من جلس على سرير الملك من إخوته"[49].

وهذا ما جعلنا نعتبر البعد الزمني طرفا أساسيا حفَّز الكاتب على تأليف كتابه على هذه الصورة على الأقل.

**ج/–المكان:** توحي بعض المعطيات الواردة في الكتاب أن المكان بدوره أحد دوافع التأليف، والمكان هنا هو إقليم مصر تحديدا الذي كان مسرحا لمعظم الأحداث والقصص التي حشدها المؤلف في كتابه، وهو ما أشار إليه ضمنيا في المقدمة بقوله : "فلما كانت السبعة من أشرف الأعداد وكان وجودها بمصر أكثر من سائر البلاد، ألفت منها في هذا الكتاب سنة سبع وخمسين وسبعمائة ما لم أسبق إليه، ولا عثر أحد في الأقاليم السبعة عليه"[50].

قصر مقدمة كتابه عليه بقوله : "أما المقدمة : ففي ذكر نبذة مما وقع في إقليم مصر من هذا العدد على طريق الإجمال"[51]. وفي التقديم – عادة – زيادة اهتمام.

كما اختار "إقليم مصر" أو"مصر" عنوانا أو جزءا في عنوان لستة أبواب من جملة الأبواب الأربعة عشر التي بنى كتابه عليها.

وهي الأبواب التالية :

الباب الثالث من التقسيم الأول، والأبواب : الثالث، والرابع، والخامس، والسادس والسابع من التقسيم الثاني.

هكذا يظهر لنا أن : السلطان "حسن بن الناصر بن قلاوون"، والزمان "سنة سبع وخمسين وسبعمائة هجرية "، والمكان "إقليم مصر" شكلت مجتمعة حوافز لابن أبي حجلة دفعت به إلى تأليف كتابه "سكردان السلطان".

## 2/– سبب التسمية :

تبرز لنا في العنوان كلمة " سكردان " كلمة أعجمية، لا نستبعد أن تكون دخيلة على العربية من اللسان التركي؛ بفعل تغلغل الأتراك "المماليك" في المجتمع العربي منذ أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري[52].

---

[49]– نفسه: 3.

[50]– نفسه:5.

[51]– نفسه:6.

وقد أورد المحقق في هامش مقدمته نقلا عن صاحب " شفاء الغليل" أن : " السكردان في الأصل : خوان يوضع فيه الشراب"[53]. بينما ذكر صاحب اللسان أن : "الخُوان والخِوان [برفع الخاء المعجمة وكسرها] : الذي يؤكل عليه، مُعرّب، والجمع أَخْونَة في القليل، وفي الكثير خُونٌ [...] والخِوان المائدة، مُعرَّبة [...] وهي جمع خِوان وهو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل" [54].

هكذا ندرك أن معنى السُّكُرْدان المائدة التي يوضع عليها الطعام، بيد أننا في الوقت نفسه نتساءل : ما السبب الذي دفع الكاتب لاختياره عنوانا لمؤلَفه ؟

يعلل المؤلِّف بنفسه هذا الاختيار قائلا: "وسَمَّيتُه: سُكُرْدان السلطان لاشتماله على أنواع مختلفة من جِد وهَزل، وولاية وعَزل، ونصيحة ملوك، وآداب وسُلوك، وسِيَر وعِبَر، وتغيير دُول، وانتحال مِلَل، وقَطْعِ طريق، وجَرِّ مجانيق، وأفعال مَكَرَة، وأعمال سَحَرَة، وبيان وتبيين، ومدح وتأبين، ويقظة ومنام، وبِرٍّ وآثام، وقال وقيل، وأهرام ونيل وغرائب وعجائب، مما تلقفته من أفواه الشيوخ الأجلة، ورويته عن كثرة وقلة، وشاهدته بعين الحقيقة، والتقطه من التواريخ المعتمد عليها التقاط الزهر من الحديقة [...] وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، ولا يقال لمنكره عثرة ..."[55].

نفهم من هذا التعليل أن اختيار المؤلِّف لهذا العنوان لم يكن اعتباطيا ؛ بل لوجود خيط رابط بينه وبين محتوى الكتاب.

وكأني بالمؤلف يريد أن يقول لنا : إن مائدة السلطان لها خصوصية تميزها عن بقية الموائد؛ كونها تشتمل – عادة – على أنواع مختلفة من الأطعمة والأشربة، وكل ما لَذَّ وطاب وكل ما يُسْمِنُ ويُغني من جُوع البطن.

وهكذا هوكتابه "سُكُرْدانُ السُّلْطان" هو مائدة من موائد السلطان؛ بيد أنها لا تشتمل على أنواع الأغذية المادية، التي تملأ البطن، وإنما تشتمل على العلم والأدب وهي أغذية معنوية تُفيدُ القلب، والروح، والذهن .

---

[52]– بدأ حكم المماليك يوم الإثنين السادس والعشرون محرّم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وأول من حكم منهم شجر الدّرّ.

[53]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، مقدمة التحقيق، 3.

[54]– ابن منظور : لسان العرب، ح ( ن– هـ )، فصل الخاء المعجمة، ج 13.

[55]- ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 5.

## المبحث الثاني : المحتوى والمنهجية.

### 1/- محتوى الكتاب :

يشتمل السكردان على مختلف أجناس الكلام العربي من شعر ونثر، وأنواعه من أخبار، وقصص، وحكايات، وسير، وأوصافه من عجيب، وغريب، ولطيف، وظريف.

أورد الكاتب سبعة وثمانين ومائة (187) استشهاد شعري؛ في أغراض وموضوعات شتى، نبرزها في الجدول التالي :

| الرقم | الموضوع | العدد | النسبة | الرقم | الموضوع | العدد | النسبة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 01 | وصف الأزهار | 62 | 33,15 % | 08 | النُّصح | 06 | 03,20 % |
| 02 | المدح | 30 | 16,40 % | 09 | التفاؤل | 05 | 02,67 % |
| 03 | وصف المباني | 22 | 11,67 % | 10 | التصوُّف | 04 | 02,31 % |
| 04 | الغزل | 19 | 10,16 % | 11 | الفخر | 04 | 02,31 % |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 05 | الحكمـة | 12 | % 06,41 | 12 | الإخوانيات | 02 | % 01,01 |
| 06 | العتـاب | 09 | % 04,81 | 13 | التعجب | 02 | % 01,01 |
| 07 | وصف الطير | 07 | % 03,74 | 14 | التشاؤم | 01 | % 0,50 |
| المجمـوع | | | | | | 187 | % 100 |

يظهر لنا الجدول (أعلاه) أن الغرض الأبرز بين هذه الاستشهادات الشعرية هو وصف الأزهار ( 33,15 ) بالمائة، ومرد ذلك – في اعتقادنا- يعود إلى كون المصنف عقد بابا كاملا في القسم الثاني من كتابه – الباب السابع- "في ذكر السبع الزهرات التي تجتمع بمصر في صعيد واحد، وذكر ما قيل فيها من منظوم ومنثور وغير ذلك.

وهي : النرجس وهو أول ما تقدم ذكره، والبنفسج، والبان، والورد المستوي ويُعرف بالقُحابي، والزهر، والياسمين، والورد النصيبي وهو آخرها..."[56].

ويليه المدح – وهو غرض شائع في الشعرية العربية عامة – إذ يعتبره البعض لوحده "ديوان العرب"[57] خاصة إذا علمنا أنه من النوع الحماسي السياسي "الذي لعب دورا فعالا في الحياة السياسية، وتسابُقُ العُظماء، وأربابُ السُّلطة إلى استقدام الشعراء وإغرائهم لنشر مناقبهم، ومدّ سلطانهم قديم، ولم يخرج سلاطين المماليك عن هذه القاعدة حيث كان لكثير من الشعراء علائق متينة مع بعضهم، لازموهم في حلّهم وتر حالهم ونُسبوا إلى بلاطاتهم"[58].

ليأتي بعده غرض وصف المنشآت – العُمرانية منها خاصة – من مدارس، ومساجد وقصور، وغيرها، ولو أنه في الحقيقة امتداد لغرض المدح؛ فالشعراء حين يصفون كل هذه البنايات، ويتغنون بجمالها إنما هم يمدحون بذلك من شيَّدها، من سلاطين، وأمراء، وكثيرا ما صَرَّحُوا بذلك عَلَنا.

وتتوالى بقية الأغراض، والموضوعات؛ من غزل، وحكمة، وعتاب، وغيرها بنسب ولو متفاوتة، كما يتجلى في الجدول السابق.

ونشير هنا إلى ملاحظتين :

---

[56]- ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 207.

[57]– عبدالله الغذامي : النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005، 160.

[58]– ينظر: خالد إبراهيم يوسف: الشعر العربي أيام المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1 2003 م، 343 .

أولا : استشهد الكاتب بالشعر في كل أبواب الكتاب سوى الباب الثالث من القسم الثاني– خصصه لذكر نبذة يسيرة من أخبار الملوك السالفة بمصر، وما كان لبعضهم من الأعمال العجيبة – فلم يورد فيه شعرا قط .

ثانيا : غياب القصائد الطويلة في اختيارات الكاتب الشعرية؛ فهي تتراوح بين البيت الواحد، والأربعة عشر بيت، وهو ما تبرزه الإحصائية التالية : .

ونفترض أن السبب الذي جعل الكاتب يقتصر في استشهادا ته على المقاطع القصيرة

| الرقم | عدد الأبيات | العدد | النسبة(م) | الرقم | عدد الأبيات | العدد | النسبة (م) |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | بيت واحد | 35 | % 18,71 | 6 | سبعة أبيات | 10 | % 5,34 |
| 2 | بيتين اثنين | 113 | % 60,42 | 7 | ثمانية أبيات | 02 | % 1,06 |
| 3 | ثلاثة أبيات | 14 | % 7,48 | 8 | تسعة أبيات | 01 | % 0,53 |
| 4 | أربعة أبيات | 09 | % 4,81 | 9 | أربعة عشر بيت | 01 | % 0,53 |
| 5 | خمسة أبيات | 02 | % 1,06 | | المجموع | 197 | % 100 |

دون القصائد الطوال هو طبيعة المصنَّف؛ الذي يميل إلى التسلية والطرافة أولا، ومراعاة لمقام السلطان حسن بن قلاوون، حيث يصلح هذا التأليف الظريف لمقامه الشريف على حدّ قول ابن أبي حجلة.

### 1–2 – النثر :

لا شك أن الغالب على مادة السكردان هو الجانب النثري بأنواعه المتعددة ( من أخبار، وحكايات، وقصص، وسير)، وموضوعاته "... المختلفة من جد وهزل، وولاية وعزل، ونصيحة ملوك وآداب وسلوك، قطع طريق وجرّ مجانيق، وأفعال مكرة وأعمال سحرة، وبيان وتبيين، ومدح تأبين، ويقظة ومنام، وبرّ وآثام، وقال وقيل، وأهرام ونيل، وعجائب وغرائب"[59].

### 1–2–1–الأخبار :

---

[59]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 3.

في الكتاب أخبار عديدة ومتنوعة، فلا يكاد يخلو باب من أبوابه الأربعة عشر منها، خاصة ما تعلّق بأخبار النيل، والقاهرة وضواحيها، والأهرام ونواحيها.

وأورد الكاتب أخباره بمقاصد مختلفة؛ فهو تارة يأتي بها بغرض" إيصال المعرفة على نحو ما نجده في ذكره لخاصية العدد سبعة، وسير السلاطين، وذكره للسبع زهرات التي تجتمع بمصر وغيرها، وتارة يوردها بقصد خلق الانفعال لدى المتلقي كما يظهر في الحكايات الممزوجة بالمواعظ، أو التي تحكي قصص الأنبياء والصالحين.

وتارة أخرى بغرض التفكه والظرف، كما هو الحال مع النُّكت التي جمعها في خاتمة الباب ووسمها بـ خاتمة الباب وسجع طائره المستطاب.

وأخرى بهدف تحقيق اللّذّة والمتعة لدى المتلقي كما نجد ذلك في أخبار العُشاق، الظراف، والمتماجنين، وحكايات الغلمان والجواري..."[60].

## 1-2-2-الحكايات :

تشغل الحكايات حيّزا هامّا ضمن مادة الكتاب، حيث نجد عقب كل باب من أبواب الكتاب الأربعة عشر (14) سبع حكايات أو يزيد، وفي ذلك يقول الكاتب :

"... وأذكر عقب كل باب من هذه الأبواب السبعة، والأبواب التي قبلها سبع حكايات وسميتها : خاتمة الباب وسجع طائره المستطاب، ليُصبح بها كل باب حسنا في بابه، مقبولا عند أربابه" [61].

على هذا النحو يصبح المجموع تسعين وثماني(98) حكايات، بيد أننا بعد استقرائنا لمجمل الحكايات الواردة في هذه الأبواب وجدنا أن عددها يفوق العدد السابق بكثير، وذلك أن أغلب الأبواب في الحقيقة تضم أكثر من سبع حكايات، والمجموع الصحيح للحكايات هو سبع وعشرون ومائة (127) حكاية.

وقدم المصنِّف لحكاياته بصيغ متنوعة مثل : "حكى فلان في كتابه كذا"، "حُكي أن" "حُكي عن"، "حكى بعضهم"، "من غريب ما يُحكى"، "وقريب من هذا ما حكاه"، "ومثل هذه الحكاية"... إلخ.

---

[60]– سعيد يقطين : الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1997، 201.

[61]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 7.

وتستوقفنا في حكايات السكردان ظاهرة بارزة تتمثل في كون أغلبها ( الحكايات) تتصف بالغرابة أو العجب؛ فمن مجموع سبع وعشرين ومائة حكاية نجد أكثر من نصفها – ستون وأربع (64) حكايات هي : إما غريبة، أو عجيبة، أو نادرة على الأقل[62].

وهذا ما نلمسه من خلال المحتوى، والصيغ الأدائية التي قدَّم بها الكاتب حكاياته أو ختمها بها، ومنها : "من غريب الاتفاق"، "وهذا من العجائب التي لم يُسمع بها ولا بأغرب منها"، "وهذا من العجائب"، "من عجيب ما رأيته"، "من غريب ما سمعته" "من غريب ما يُحكى"، "من غريب الاتفاق العجيب"، "وهذا أمر عجيب"، "ومن عجائب البلدان الغريبة"، "وهذا من أغرب ما يكون"... إلخ.

**1-2-3 – القصص :**

اقتصر الكاتب في هذا الجنس الأدبي على قصص الأنبياء، حيث أورد ثلاث قصص في القسم الثاني من كتابه، وهي : قصة يوسف عليه السلام في الباب الأول، وقصة موسى عليه السلام في الباب الثاني، وقصة بلقيس مع نبي الله سليمان عليه السلام في الباب الثالث.

وحظيت قصة سيدنا يوسف عليه السلام باهتمام خاص من لدن الكاتب حيث شغلت أكبر عدد من صفحات كتابه ثلاثون وصفحتين (32)، ومما جاء في تقديمه لها قوله : "... نظرت في سبعة تفاسير قبل الكلام على هذه القصة التي هي قصة يوسف عليه السلام، فوجدتها كما أخبر الله تعالى أحسن القصص "[63].

وبدأ في سرده للقصة من حدث الرُّؤيا حين " رأى وهو ابن سبع سنين أن أحد عشر غُصنا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا بغُصن وثب عليها حتى اقتلعها وغلبها فوصف ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لإخوتك.

ثم رأى وهو ابن اثني عشرة سنة أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له فقصها على أبيه فقال : ﴿لاَ تَقْصُصْ رُءْ يَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف: 5] أي يحتالون،على هلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك "[64].

---

[62]– ينظر : في تعريف ( الغريب، والعجيب، والنادرة) : سعيد يقطين، المرجع السابق، 163، نقلا عن صاحب الكليات .

[63]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 107.

[64]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 108.

مشفعا كل ذلك بأخبار نادرة، وتفاصيل دقيقة لا نكاد نعثر عليها في كثير من كتب القصص والتفسير.

لينتقل في الباب التالي للحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقدمها بطريقتين مختلفتين :

عرض لنا القصة في المرة الأولى على شكل مقاطع (فلاشات) لأهم المواقف التي واجهت سيدنا موسى مع فرعون وزبانيته، وكانت البداية من لقائه نبي الله شعيب وقصة العصا، وختمها بآيات سورة الأعراف التي بين الله عز وجل فيها عاقبة فرعون وقومه.

واستوقفنا الكاتب بعد عرضه الموجز للقصة ليذكر لنا نبذة من سيرة فرعون ومبدأ ولايته، منذ قدومه من أصفهان هاربا من الدَّين، إلى تولِّيه عرش مصر.

ليعود بنا مرة ثانية للقصة في عرض مستفيض، وشرع في سردها بقوله :

"... وكانت الكهنة قد أخبرت فرعون وقالوا له : يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك على يده، فأمر فرعون بذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل، ووكَّل الشُّرط مع القوابل كلما ولد مولود ذبحوه، وأسرع الموت في مشائخ بني إسرائيل، فقال رؤساء القبط لفرعون : لقد أمرت بذبح الأبناء وقد أسرع الموت في المشائخ، فإن دُمت على هذا لم نجد من يخدمنا.

فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد موسى عليه السلام في سنة الذبح، فلما تلقته القابلة لاح نور بين عينيه فهالها وهابته وقالت لأمه : أحفظي ابنك فهذا هو المطلوب الذي أخبرتنا الكهنة أنه عدوُّنا، وكانت مُصافية لأم موسى عليه السلام" [65].

وختم القصة بحادثة الغرق بقوله : "فلما ألجم فرعون الغرق قال : ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهَ الَّذِي ءَامَنتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ﴾ [ يونس : 90]. فجعل جبريل يدسُّ في فيه من طين البحر ويقول : ﴿ءَآلَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكنُنْتَ مِنَ المُفْسدِينَ﴾ [يونس : 91]"[66].

وما يُثير الانتباه في كلتا القصتين هو تركيز الكاتب على المكان –إقليم مصر– وكأني به يقول لنا : إن التمكين لكلا النبيين –سيدنا يوسف بتربُّعه على عرش مصر، وسيدنا موسى بتلقيه الوحي، وانتصاره على فرعون– إنما كان بأرض مصر.

ثم ذكر قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام، وبدأها بقوله تعالى على لسان بلقيس:

---

[65]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 139.

[66]– ابن أبي حجلة : المصدر السابق، 144.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل : 35].

ليُطلعنا بعدها على أقوال بعض المُفسرين في وصف هذه الهدية، ويستطرد من ثم في بسط الكلام على أحداث القصة في أسلوب مُشوِّق، مع تركيز خاص على كل ما هو عجيب أو غريب فيها.

# الفصل الثاني

# النص المنقبي أبعاده الثقافية وتجلياته الكلامية

يحتوي " السكردان" كنص مناقبي جامع لمختلف النصوص، على أبعاد ثقافية متنوعة منها:

1-البعد المنقبي:

إن المناقب بوصفها"أخبار وحكايات حول الصالحين، تقوم أساسا على الحدث والعمل الخارق" [67] ترد في الكتاب في أكثر من موضع، إلا أنها تبرز بشكل أوضح في سيرة السلطان حسن بن قلاوون؛ حيث تتجلى لنا من خلال الصور التالية:

- **الصورة الأولى:** مباشرة: وفيها يسدل الكاتب جملة من الصفات، والنعوت على السلطان، ويشرع في ذلك من ديباجة الكتاب، فبعد البسملة والحمدلة والصلاة على المصطفى يقول: "...الحمد لله الذي انطق الطير بحكمته، وأجرى البحار السبعة بقدرته، وجعل مولانا السلطان سابع من جلس على سرير الملك من إخوته، فرعى الله عز وجل في

---

[67] – ينظر: سعيد يقطين: المرجع السابق، 196.

رعيته وأصبح من الأبدال بعد إخوته النجباء لما انتشر في الآفاق من حسن طويته، وترك عدو الدين المخذول مشغولا بهَمِّه لعُلو هِمَّتِه..." [68].

ويعود في المقدمة نفسها فيدعو لمولاه السلطان ، ومن تبعه بقوله:

"...وأحيا ما فيها من الموات ببقاء مولانا السلطان محيي العدل في العالمين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين، أبي المحاسن" حسن " صرف الله عامل سيوفه في رقاب ذوي النفاق، وحرس غرفات قاعاته السبع بملائكة السبع الطباق، ما دارت أيام الجمعة، وأشرقت في ليليها من الثريا نجومها السبعة:

آمين أمين لا أرضى بسابعة          حتى تُضيف إليها ألف آمينا " [69].

ومما جاء في ذكر محاسنه، وتعداد مناقبه: "مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبو المحاسن حسن، حسن الذات، سعيد الحركات، له تهجد وصيام، ومحبة في النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، سمت همته في النيل إلى السماك الرامح، وسار سيرة حسنة كسيرة أخيه إسماعيل فهو بقية السلف الصالح، كيف لا وقد تجنب اللمم، وعدل في الأمم، وأصلح بين الذئب والغنم..." [70].

ونلمح في استقرائنا للمقاطع السابقة بعض العناصر المشتركة بينها، والمتكررة حتى كادت تشكل ثوابت في البناء العام لكل مقطع، وهي:

**أولا:** اللقب الخاص بالملك: مولانا، والسلطان، والملك...

**ثانيا:** الاسم: حسن.

**ثالثا:** المحاسن، والمآثر، والفضائل: علو همته، ومحيي العدل في العالمين، وناصر الدنيا والدين، وله تهجد وصيام، ( وأصلح بين الذئب والغنم ).

**رابعا:** بعض أخباره وإنجازاته : عدل في الأمم.

**خامسا:** الخوارق والكرامات: تجنب اللمم، وأصلح بين الذئب والغنم.

**سادسا:** الدعاء: صرف الله عامل سيوفه في رقاب ذوي النفاق، وحرس غرفات قاعاته السبع بملائكة السبع الطباق.

---

[68] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 3.

[69] – نفسه، 5.

[70]- – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 71.

**الصورة الثانية:** غير مباشرة من خلال العدد سبعة.

ونعتقد أن كون السلطان سابع من جلس على سرير الملك من إخوته، وجريان العدد سبعة بشكل ملفت للانتباه في سيرته، أضفى عليه من الكمال والجلال أكثر مما أضفته عليه الصفات، والنعوت التي أطلقها عليه الكاتب.

وبيان ذلك أن أول أبواب الكتاب عقده صاحبه لذكر شرف العدد سبعة وخاصيته ومزيته على غيره من الأعداد، ومما أورده فيه: "...أن السبعة أول الأعداد الكاملة لأنها جمعت العدد كله لأن العدد أزواج وأفراد..." [71]. وقوله:"...وإنما كان ذلك كذلك لأن السبعة عندهم عدد كامل والعدد بعدها مستأنف " [72].

ليعرج بنا الكاتب بعدها إلى سبعة مواضع في القرآن الكريم تدعم قوله، وتقوي حجته، ويختم الباب بقوله: " وقد استقريت ما وقفت عليه من كتب العلم والتفسير والحديث والتواريخ وغير ذلك فلم أر عددا مذكورا دائرا على الألسنة أكثر من هذا العدد، ومن تصدى لذلك علم صحة ما قلته، ومعلوم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وأن من أحب شيئا أكثر من ذكره " [73].

وهي مقارنة ضمنية – إلى الآن– بين السلطان حسن، والعدد سبعة ؛ فهو سابع السلاطين في أسرته، لذا فشرفه عليهم، ومزيته كشرف العدد سبعة على غيره من الأعداد، وذكره على الألسنة دون السلاطين كذكر العدد سبعة، فهو سلطان كامل كما هو العدد سبعة عدد كامل.

بيد أن ابن أبي حجلة يتجاوز المقارنة الضمنية إلى مقارنة صريحة في الباب الثاني الذي وسمه بـ:" في بيان ما لمولانا السلطان أعز الله تعالى أنصاره بهذا العدد من العلاقة وما بينها من المناسبة والسر المقتضي لنصره ودوام ملكه وذلك من سبعة أوجه:

أولها: أنه أعز الله تعالى أنصاره وأدام علوه واقتداره سابع من جلس على سرير الملك من إخوته.

ثانيا: أنه وافق والده السلطان الناصر الشهيد في سبعة أشياء.

---

[71] – نفسه، 13.

[72] – نفسه: نفسها.

[73] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق: 18.

ثالثا: أن الله تعالى خص إقليم مملكته من هذا العدد بما لم يخص به إقليما غيره.

رابعا: أن له بانقضاء هذه السنة المباركة التي هي سنة سبع وخمسين وسبعمائة سبع سنين في الملك.

خامسا: أن قاعاته المحروسة سبع قاعات متواليات بقلعة الجبل المحروسة.

سادسا وسابعا: أنه داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ [74].

لأنه إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله تعالى " [75].

وبيَّن العلاقة بينهما بقوله : " فلما وافق هذا العدد المذكور من الوجوه السبعة وكان أعني هذا العدد السابع عند أهل علم الفلك من الأوتاد الثابتة دل ذلك على ثبات مملكته ودمار عدوه وهلكته، وعلو شأنه وقوة سلطانه وتشييد أركانه ونصره على أعدائه، لأن التصريف الذي يكون من السين، والباء، والعين شديد الأمر " [76].

وهكذا يصبح كل شرف، ومزية، ومنقبة – إن صح التعبير – ينالها العدد سبعة تنسحب آليا على السلطان حسن.

**الصورة الثالثة:** من خلال سير إخوة السلطان، وأبيه، وعميه الصالح والأشرف، وجده المنصور قلاوون.

إن الحديث عن مآثر أسرة السلطان، وفضائل أفرادها هو بشكل أو بآخر ذكر لمآثره وفضائله أيضا.

وهذا ما نلمسه في استعراض سيرة كل واحد، ومبدأ ولايته.

بيد أننا مع ذلك نجد تمايزا بين سيرة السلطان من جهة، وسيرة إخوته وأبيه، وعميه وجده الملك المنصور قلاوون من جهة ثانية.

وذلك أن الكاتب يخص مولانا السلطان باهتمام، وتميز خاص. فهو بداية من سيرة والده السلطان الأعظم الملك الناصر محمد الذي انتشر ذكره في الآفاق، وأصبح لهيبته نسب

---

[74] – أخرجه مسلم " كتاب الزكاة " باب فضل إخفاء الصدقة، الحديث رقم 1031.

[75] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 23.

[76] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 24.

عريق في العراق " [77]. يذكر لنا بأن هؤلاء السلاطين على كثرة الفضائل التي ميَّزت حياتهم، والإنجازات التي خلدت مآثرهم جميعهم خُلِعوا؛ بمعنى أن نهاية حياتهم السياسية لم تكن طبيعية، وكلمة " خُلِعَ " كافية – في تقديرنا – لِتَسِمَ سيرة أيّ منهم بالنقص.

وبيان ذلك أن (الخَلْعَ) بمعنى العزل، جاء في اللسان: "يسمى الإمام والأمير إذا عُزِلَ خَليعاً، لأنه لبس الخلافة والإمارة ثم خُلِعَهَا"[78].

ولهذا فإن كلمة " خُلِعَ " تثير تساؤلات عديدة، وتفتح بابا للتأويل، ولعل أول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو : لماذا خُلِعَ هذا الأمير أو ذاك دون ذلك ؟

نقول : إن الخَلْعَ يقتضي منطقيا وجود خالع كما هنالك مخلوع أو خليع، وظهور الخالع دليل على وجود معارضة، والمعارضة هي ردة فعل بالأساس، ونتيجة في الوقت نفسه لأزمة ما، والأزمة في الأخير هي نقص كونها ليست أمرا عاديا.

ولأن الكاتب يدرك المعاني السلبية لكلمة : "خُلِعَ " نجده لم يتحرَّج في توظيفها في سير أفراد أسرة السلطان، وحتى في سيرة والده، بينما أخفاها في سيرة مولاه السلطان – الذي خُلِعَ كأبيه، وبقية إخوته – وعَبَّر عنها بصورة بيانية تبعث على الدهشة، بقوله: "...فغاب كالبدر في سحابة، ورجع كالسيف المسلول من قرابه فخضعت له الرقاب وضُرِبَ بين الظلم وقلعته بسور له باب"[79].

فجعل "خَلْعَهُ" الذي هو نقيصة غيابا إراديا، وأيّ غياب غيابُ البدر في السحاب، والسيف في القِراب.

ويدخل كل هذا ضمن سلسلة الفضائل، والمناقب التي يختص بها السلطان حسن دون غيره، حتى لو كان هذا الغير من الأقارب، والمقربين، لأنه المثال وهو الأحق بقول القائل : [80]

لَسْنَا وإن كَرُمَت أوائلُنا     يوما على الأحساب نتَّكِلُ
نبني كما كانت أوائلُنا     تبني ونَفْعَلُ فَوْقَ ما فعلوا

---

[77] – نفسه : 58.

[78] – ابن منظور: المصدر السابق، مج 8، مادة " خلع"، حرف العين، فصل الخاء.

[79] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 71.

[80] – نفسه: 70.

## 2- البعد الديني:

نلمس البعد الديني في السكردان في أشكال متعددة لعل من أبرزها " توظيف النصوص الدينية (القرآن، والأحاديث النبوية )، وهي من أنجح الوسائل، وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص [...] وهي أنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره، فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينيا أو شعريا، وهي لا تمسك به حرصا على ما يقوله فحسب وإنما على طريقة القول وشكل الكلام أيضا، ومن هنا يصبح توظيف التراث الديني في الشعر [والنثر] تعزيزا قويا لشاعريته ودعما لاستمراره في حافظة الإنسان"[81].

حيث ضم الكتاب أكثر من ثمانين (80) اقتباسا من القرآن الكريم، وثمانية عشر(18) حديثا نبويا، فلا يكاد يخلو باب من أبوابه من آية، أو حديث.

وتبرز إحصائية الجدول رقم (1) السُّوَرَ المقتبس منها وعدد الآيات المستشهد بها :

| الرقم | السورة | عدد الآيات | الرقم | السورة | عدد الآيات | الرقم | السورة | عدد الآيات | الرقم | السورة | عدد الآيات |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | البقرة | 04 | 7 | الحِجر | 01 | 13 | فاطر | 01 | 19 | الطلاق | 01 |
| 2 | النساء | 01 | 8 | الكهف | 03 | 14 | الزخرف | 01 | 20 | الحاقة | 03 |
| 3 | الأعراف | 08 | 9 | طه | 01 | 15 | الفتح | 01 | 21 | الإنسان | 01 |
| 4 | التوبة | 03 | 10 | النَّمل | 01 | 16 | ق | 01 | 22 | النازعات | 01 |
| 5 | يوسف | 59 | 11 | القَصص | 03 | 17 | القمر | 01 | 23 | الكوثر | 01 |
| 6 | الرَّعد | 01 | 12 | الروم | 01 | 18 | المنافقون | 01 | المجموع | | 100 |

يُظهِر لنا الجدول رقم (1) أن الاقتباس شمل جُل أجزاء القرآن الثلاثين، وأحزابه الستين، فهو يبدؤه بالبقرة أطول السور، ويختمه بالكوثر أقصرها.

كما نلاحظ أن سورة يوسف عليه السلام حظيت بأكبر قدر من الاقتباسات، والبالغ عددها تسع وخمسين ( 59 ) آية، ولعل سبب تركيز الكاتب عليها يعود لاشتمالها على قصة سيدنا يوسف عليه السلام، التي هي أحسن القصص والتي خصص لها الكاتب أكبر عدد من صفحات كتابه.

وقد جاءت الاستشهادات القرآنية، والأحاديث النبوية بمقاصد مختلفة نبرز منها :

---

81 – عبد العاطي كيوان: التناص القرآني في شعر أمل دنقل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، 1998 م، 48، 49.

**2-1: الإقامة الدليل والبرهان:**

كقوله في الباب الأول عند ذكره لشرف العدد سبعة (7) وخاصيته، ومزيته على غيره من الأعداد : " أقول : إنما كان ذلك كذلك لأن السبعة عندهم عدد كامل والعدد بعدها مستأنف، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] فأثبت الواو بعد السبعة، ولم يثبتها فيما تقدم من الأعداد"[82].

وقوله : "... ويؤيد قوله هذا سبعة مواضع في كتاب الله تعالى: أحدها قوله تعالى: ﴿ اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة 80]، على أنه ليس المراد بذكر السبعين هنا حدا محدودا لوجود المغفرة بعدها، وإنما على وجه المبالغة بذكر هذا العدد، بدليل ما رواه مجاهد وقتادة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ( سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَّغْفِرَ اللهُ لَّهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] ). [83]

وفي خضم عرضه للمواضع السبعة – في كتاب الله – التي تؤيد شرف العدد سبعة، ومزيته على غيره من الأعداد، يورد قوله ﷺ : " المُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعِيٍّ وَاحِدٍ وَالكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ " [84].

**2 – 2 : للإشادة والتشريف :**

وأورد الكاتب جملة آيات وأحاديث بهذا القصد كقوله : "...وقد ذكر الله تعالى مصر في ثمانية عشر موضعا في كتابه العزيز منها قوله تعالى:﴿ اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَاسَأَلْتُم ﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى فيما حكاه عن فرعون:﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الاَنْهَارُ تَجْرِي من تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:51] " [85].

وفي بيان ما للسلطان حسن والعدد سبعة من علاقة، وما بينهما من المناسبة والسِّر المقتضي لنصره ودوام ملكه قوله:" إنه داخل تحت قولهﷺ :"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظلَّ إلاَّ ظِلُّهُ " لأنه إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى" [86].

---

[82] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 13.

[83] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق: 14.

[84] – أخرجه مسلم في باب " الأشربة" برقم 3061، و ينظر ابن أبي حجلة: المصدر السابق، 16.

[85] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 32.

[86] – نفسه: 23.

فذكر إقليم مصر بالاسم في القرآن الكريم هو شرف، وإشادة به تمنح المكان مزية ورفعة بين سائر الأقاليم.

كما ينال السلطان بدخوله ضمن قائمة السبعة الذين بشرهم النبي (ﷺ) بالجنة، شرفا عظيما ومنقبة ما بعدها منقبة. كيف لا وهي التنعُّم في ظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله، والسلطان هنا ينال هذا الشرف بتوفره على صِفَتَين من صفات السبعة المبشرين فهو إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، وهذا شرف، ومنقبة لم يمنحها حتى للأنبياء [87].

**2– 3 : للوعظ والاعتبار والتربية :**

وفي هذا الباب نجد الكثير من النصوص التي وظفت للوعظ، وأخذ العبرة وهي: إحدى أساليب التربية، خاصة ما تعلق بقصص الأنبياء كما هو الحال مع قصص سيدنا يوسف عليه السلام المشتملة " على ذكر المحب والمحبوب وسيرتهما، وفيها ذكر الأنبياء، والصالحين، وسير الملوك والسلاطين والعلماء والملائكة والشياطين والتجار والرجال و النساء وذكر مكرهن وحيلهن " [88].

وقصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون الذي علا في الأرض وأهلك الحرث والنسل وكان جبارا شقيا فكانت عاقبته أن ألجمه الغرق، فأصبح أثرا بعد عين.

وقصة بلقيس ملكة سبأ مع سيدنا سليمان ( عليه السلام )، والتي كان محورها ما تناقله المُفسِّرون، وأرباب التاريخ في وصف هديتها إلى سيدنا سليمان الواردة في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بَهدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:35].

وهي جميعها قصص تحض بلا ريب على أخذ العبرة من حياة أولئك القوم الذين كانوا أشد منا قوة وآثارا في الأرض.

## 3 – البعد الرمزي الأسطوري :

لاستجلاء البعد الرمزي الأسطوري في السكردان ينبغي أولا تحديد مفهومي: الرمز، والأسطورة.

---

[87] – أورد الكاتب في المقدمة ما يلي: "...و يوسف عليه السلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، لأنه دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين (السكردان: 8)، نلمس في هذه المقولة أن سيدنا يوسف النبي عليه= =السلام يتوفر على صفة من صفات السبعة المبشرين بالجنة، بينما يتوفر السلطان على صفتين، لأنه إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله.

[88] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 107.

"الرمز إشارة وإيماء بالعينين، والحاجبين، والشفتين، والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه بيد أو بعين، ورَمَزَ يَرْمِزُ ويَرْمُزُ رَمْزاً وفي التنزيل العزيز في قصة زكريا عليه السلام : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ ورَمَزَتْهُ المَرْأَةُ بعينها تَرْمُزُهُ رَمْزاً غَمَزَتْهُ " [89]. هكذا ندرك أن الرمز ليس إلا إشارة يقوم على التلميح.

وجاء في تعريف الأُسطُورة: سطر: السطر والسطر: الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها [...] والجمع من كل ذلك أَسْطُر وأَسْطَار وأَسَاطِير [...].

وقال الزَّجَّاج في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [...] معناه سَطَّرَهُ الأَوَّلُونَ وواحد الأساطير الأسطورة، كما قالوا أحدوثة وأحاديث، وسَطَرَ يَسْطُر إذا كتب [...] قال أبو سعيد الضرير سمعت أعرابيا فصيحا يقول: أسطر فلان اسمي أي تجاوز السطر الذي فيه اسمي [...] والإسطار بمعنى الإخطاء.

والأساطير الأباطيل، والأساطير أحاديث لا نظام لها " [90]. فهي بذلك كل ما سطره أو كتبه الأولون من أباطيل وأحاديث لا نظام لها.

وحسبنا أن نُعَرِّفَ الأساطير بأنها مجموعة الحكايات الطريفة المتوارثة منذ أقدم العهود الإنسانية، الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع، ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية اعتقد الإنسان الأول بألوهيتها" [91].

وهكذا فمقصودنا بالبعد الرمزي الأسطوري إنما هو تلك الإشارات، والحكايات المتوارثة عبر الحقب الزمنية، والتي حَمَّلَها الإنسان على مرِّ الزمن دلالات حافلة بضروب الخوارق اختلط فيها الخيال بالواقع.

والمتأمل في محتوى السكردان لا يلبث أن يكتشف احتواءه على هذا النوع من الرموز، ويأتي في مقدمتها العدد سبعة، الذي بَوَّبَ كتابه عليه.

فما دلالات هذا الرمز (العدد سبعة) ؟

---

[89] –ابن منظور: المصدر السابق، مج5، مادة (رمز)، فصل الراء، حرف (الزاي).

[90] – ابن منظور: المصدر السابق: مج4، مادة (سطر)،فصل (الراء) ن حرف (السين).

[91] – أنس داود: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ط3، دار المعارف، مصر، 1992، 19.

يقـول الكاتـب: "... فلمـا كانـت السـبعة مـن أشـرف الأعـداد وكـان وجودهـا بمصـر المحروسة أكثر من سائر البلاد ألَّفتُ منها هذا الكتاب سنة سبع وخمسين وسبعمائة مالم أسبق إليه ولا عثر أحد في الأقاليم السبعة عليه " [92].

يقدم الكاتب مُبَرِّرَيْنِ لتأليفه في هذا العدد، وهما :

الأول: كَوْنُ العدد سبعة من أشرف العداد.

والثاني: شُيُوعُه في مصر دون سائر البلاد.

والحقيقة أن هذا التبرير لا يجيب عن سؤالنا السالف بقدر ما يدفعنا إلى سؤال ثاني أكثر دقة وهو: كيف نالت السبعة هذا الشرف ؟

يعقد الكاتب بابا كاملا لهذا الغرض، ويسمه بعنوان: في ذكر شرف هذا العدد ومزيته وخاصيته على غيره من الأعداد.

وجاء فيه قوله: " الكلام عليه من سبعة أوجه :

أحدها: إنه أول الأعداد الكاملة، والثاني : أن العرب تذكره لأقصى المبالغة، والثالث: إنه عدد كامل والعدد بعده مستأنف، والرابع : أن السبعة، والسبعمائة، والسبعين، مواقف ونهايات لأشياء عظام، وذكر سبعة مواضع في كتاب الله تؤيد ذلك.

- أحدها: قوله تعالى :﴿اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:80].

والثاني: قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيهِم اَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:6].

والثالث: قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُومِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: 32-34].

- والرابع والخامس: قوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الاَرْضِ مِثْلَهُن﴾[الطلاق:12].

والسادس والسابع : قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَّشاءُ﴾[البقرة:261].

والخامس:أنه عدد مقنع كونه في السموات والأرض، وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي يطيع بها الله، أو يعصيه.

---

[92] - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 5.

– والسادس: ما جاء في بعض الآثار النبوية في معاني هذا العدد.
والسابع: ما استقرأه الكاتب من حال هذا العدد من حيث تقليبات حروفه الثلاثة(س،ب،ع) أو ما يسمى طريقة الاشتقاق الأكبر، حيث وجد أن القوة لا تنفك عنه، ولزمت كل تصاريف حروفه، ودارت معها حيث دارت.

والملاحظ أن الكاتب قد اقتصر في استجلاء الأبعاد الرمزية لهذا العدد على الثقافة الإسلامية بمرجعياتها الأساسية ( القرآن الكريم والسنة النبوية ) فحسب، في حين تكشف المصادر أن للعد سبعة " مكانة خاصة خفية تضرب جذورها في الثقافات المختلفة والحضارات القديمة... " [93].

" ولعل القصص التي تعتمد بالدرجة الأولى رقم (7) هي من التقاليد الكنعانية أصلا، اقتبسها اليهود بعد احتلالهم للأرض الفلسطينية، واغتصابهم لتراث شعبها، حيث تغلغل أثره في ذرات الكون وخلقه، ومتغيرات الدورات الجوية، وبلغ حد التقديس عند بعضهم، ودخل عالم السحر في حضارات مصر القديمة، وفي متون العقيدة البالية حيث أصبح العامل المشترك في كثير من قصص الأساطير الفرعونية والإغريقية، والبابلية، إنه الرقم المقدس " [94].

ولكن نتساءل : ما سر هذا التغلغل ؟

" العدد سبعة إنه العدد (المقدس)، والرقم( السحري) ويقابل (7) أيام الأسبوع، و(7) درجات الكمال و(7) درجات السموات، و(7) بتلات الوردة [...] والعدد سبعة يشير إلى ضرب من المال والكمال، والكلية والتوجيه، والعدد (7) رمز الدينامية والواقع، إنه يمثل العمل المنتظم الذي لابد له من أن يفضي إلى الكمال " [95].

وهو بذلك " رمز القوة والنصر، ورمز الأوقات والأزمنة السعيدة، وهو من الأرقام الميمونة التي يتفاعل به الناس؛ فالحظ دائما يأخذ بصاحب هذا الرقم حيث تتحقق مشروعاته الجديدة، وتتأكد شخصيته، وكيانه، وتتغير أحواله كل سبع سنوات " [96].

---

[93] – فتحي فطوم : (7) سبعة الرقم المقدس ، دار الينابيع، ط1، 2003، 5.

[94] – نفسه: 5.

[95] – نفسه: 12.

[96] – نفسه: 18.

والحقيقة أن هذه المعاني: القوة، والنصر، والتفاؤل، والحظ السعيد هي من أكثر المعاني التي يُلِحُّ الكاتب على ارتباطها بحياة السلطان، وعلة ذلك بالطبع ارتباطه بالعدد سبعة، يقول الكاتب في ذلك : "... فلما وافق هذا العدد المذكور من الوجوه السبعة، وكان أعني هذا العدد السابع عند أهل علم الفلك من الأوتاد الثابتة دل ذلك على ثبات مملكته و دمار عدوه، وهلكته وعظم شأنه وقوة سلطانه وتشييد أركانه ونصره على أعدائه، لأن التصريف الذي يكون من السين، والباء، والعين شديد الأمر " [97].

ونورد هنا بعضا مما جاء في المعتقدات الدينية، والطقوس، والأساطير، والحكايات لدى الشعوب حول العدد سبعة (7).

" جاء في القصائد السومرية منذ القديم أن الكون مضاء بسبعة أنوار سماوية،وأن الطوفان استمر (7) أيام وسبع ليال، وأن البطل جلجامش في بحثه عن الخلود كان عليه أن يجتاز (7) جبال، وتحييد (7) شياطين، وقطع سبع شجرات [...] وتقول أكدية سومرية: " إذا ولد مشوه تقدم سبعة أرغفة من أجل صرف هذا الفأل السيئ [98].

و" تشير قصة الطوفان الواردة في العهد القديم من الكتاب المقدس أن دورة الزمن التي كان البابليون يعتمدونها في فروضهم وطقوسهم الدينية قوامها سبعة أيام.

كما قسم العبرانيون الوقت إلى أسابيع في وقت مبكر جدا في تاريخهم، فالخلق تم في أسبوع من سبعة أيام، وكانت حفلات الزواج والمأتم عندهم تستغرق سبعة أيام " [99].

ولا زالت هذه العادة منتشرة عند بعض الشعوب إلى اليوم.

" والملائكة الأبرار عند الزراديشتية عددهم سبعهم، ويعرفون باسم السبعة المقدسون الخالدون [...] وتعرف الأيام السبعة الأولى من كل شهر بأسمائهم.

ومقومات النير فانا (مرحلة السمو عند البوذيين) سبعة، وهي :

1/:السيطرة على النفس 2/- الوصول إلى الحقيقة 3/- النشاط 4/- الهدوء 5/-الغبطة 6/- التركيز 7/- علو النفس، وهي أسمى ما يصل إليه الإنسان " [100].

---

[97] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 24.

[98] – فتحي فطوم: المرجع السابق ن 13.

[99] – نفسه: 41.

[100] – نفسه: 22.

"وكانت مصر خمسة وثمانين كورة، في كل كورة رئيس من الكهنة، وهم السحرة، و كان الذي يعبد منهم الكواكب السبعة سبع سينين يسمونه ماهرا، والذي يعبدها تسعا وأربعين سنة لكل كوكب سبع سنين يسمونه فاطرا، وهذا يقوم له الملك إجلالا، و يجلسه إلى جانبه، ولا يتصرف إلا برأيه " [101].

" وتنص العقيدة السرية للحكمة على وجود سبعة عوالم، والعدد (7) يشير إلى الكمال واتحاد عالمي الروح والاستغراق في الحقيقة، أما العوالم الأربعة الدنيا فتشير إلى المادة... إلى الكثافة... إلى الإحسان والانطباعات والانفعالات والعواطف والصور..." [102].

" والمسلمون كغيرهم يضفون على سبعة(7) سبعة دلالات وقيم خاصة، لم تزده إلا قداسة وكثافة رمزية كونه أحد أكثر الأعداد تداولا في الثقافة الإسلامية فالله تعالى خلق سبع سموات وسبع أرضين،والقرآن الكريم سبعة أسباع، والطواف بالبيت سبعة أشواط والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط وجميع ولد النبيﷺ سبعة (ثلاثة بنين، وأربع بنات ) وجميع الأعضاء التي يسجد عليها المسلم في صلاته سبعة أعضاء (الجبهة مع الأنف، واليدين، والركبتين، والرجلين )، والإناء الذي ولغ فيه كلب يغسل بالماء سبع مرات أولاهن أو أخراهن بالتراب والإفطار على سبع تمرات كما أوصى بذلك النبيﷺ يحفظ المسلم من السحر في يومه، ويعق [103] عن المولود الجديد، ويسمى، ويحلق رأسه في اليوم السابع من ولادته.

" وقال الأوزاعي : مكث آدم في الجنة مائة عام، وفي رواية ستين عاما، وبكى على الجنة سبعين عاما، وعلى خطيئته سبعين عاما [...].

وقال عطاء الخرساني: لما مات آدم بكت عليه الخلائق سبعة أيام : [104].

ولعلنا نتساءل بعد هذه الرحلة مع العدد سبعة في تاريخ الإنسانية بما اشتمل عليه من معتقدات، وأديان، وأساطير عن السبب الذي جعل هذا العدد رمزا مقدسا ؟

نقول: على الرغم من أننا لا نعلم على وجه اليقين السر الكامن وراء تقديس العدد سبعة إلا أن البعض يقدم الافتراضات التالية :

---

[101] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 151.

[102] – فتحي فطوم: المرجع السابق، 34.

[103] – العقيقة: ذبح شاة في اليوم السابع من ازدياد المولود، و هي سنة لدى الملمين.

[104] – فتحي فطوم: المرجع السابق، 51.

ربما يعود ذلك لكونه عددا كاملا فهو " لا يقسم إلا على ذاته، أو لأنه يتألف من مجموع العددين ثلاثة وأربعة وهذان العددان من الأعداد المقدسة.

وربما استمد قداسته من طبيعة الأشياء المحيطة بالإنسان: أضواء نجوم الدب الأكبر سبعة نجوم، وأضواء الدب الأصغر سبعة نجوم[...] وأضواء ذات الكرسي على يمين الدُّب الأكبر سبعة نجوم [...] وليس هذا فحسب، بل هناك رموز أخرى لتقديس هذا الرقم فألوان قوس قزح أيضا سبعة ألوان، وعدد الأنوية في الكيس الجنيني، وفي بيض الزهرة في النباتات أيضا سبعة أنوية...لذلك قدَّس الإنسان رقم سبعة لما يحمله من رموز ألهبت مشاعره، ولهذا السبب أيضا جعل عدد أيام الأسبوع سبعة أيام "[105].

كما نضيف إلى ذلك باعثا آخر نحسب أن له كبير الأثر في إضفاء هالة القداسة على العدد سبعة، ونقصد به حضوره المميز في الكتب المقدسة والأديان السماوية وحتى الوضعية وجميعنا يعلم ما لهذه الأخيرة من دور في حياة الشعوب لما تحمله من قداسة، ويؤيد هذا ما ذهب إليه البعض من أنَّ " حكايات الأساطير كلها مأخوذة من الكتاب المقدس أصل كل الحكايات العربية التي كان يتداولها الجاهليون "[106].

وتبدو هذه الافتراضات مقنعة إلى حد ما كمبرر لتقديس العدد سبعة ما دامت تنطلق من واقع الإنسان الحياتي، وطبيعة الأشياء المحيطة به، في هذا الكون الفسيح الذي سعى الإنسان منذ فجر الخليقة إلى إيجاد تفسيرات مقنعة لظواهره، وسننه الطبيعية.

بيد أن ما نخلص إليه هو أن درجة القداسة التي نالها العدد سبعة لا يمكن ردها إلى أصل واحد بقدر ما هي كل تلك البواعث مجتمعة، وبواعث أخرى تضافرت جميعها، وتراكمت في معتقدات الشعوب، وثقافاتها عبر حقب زمنية طويلة، وأجيال متعاقبة لتجعل منه رمزا أسطوريا بحق.

## 4 – البعد السياسي :

يحمل السكردان خطابا سياسيا واضح المعالم، فيه نزعة التأييد المطلق لسياسة السلطان وبعض النصائح والتوجيهات التي تكفل نصره، ودوام ملكه، ومن مظاهر هذا التأييد المطلق للسلطان الملك الناصر حسن ما أضفاه عليه الكاتب من نعوت، وصفات رفعته إلى درجات

---

[105] – فتحي فطوم: المرجع السابق: 38.

[106] – أنس داود: المرجع السابق، 37.

الكمال، كيف لا "...وهو الذي تجنب اللمم، وعدل في الأمم، وأصلح بين الذئب والغنم" [107]، و"هو المحروس بالملائكة الأبرار" [108]، و"هوالذي له سر يقتضي نصره، ودوام ملكه، بماله من علاقة بالعدد سبعة رمز القوة والنصر، ورمز الأوقات السعيدة، فالحظ دائما يأخذ بصاحبه الذي تتحقق مشروعاته، وتتأكد شخصيته وكيانه..." [109].

وكل ذلك دل على ثبات مملكته ودمار عدوه وهلكته، وعظم شأنه وقوة سلطانه وتشييد أركانه ونصره على أعدائه " [110].

ونلمس مع ذلك أن في الكتاب بعض النصائح، والتوجيهات المبثوثة في صفحاته، التي ترمي إلى توجيه السلطة، وقد وردت في شكل أسئلة يجيب عنها حكماء أو أمراء مشهود لهم بالعدل تارة، وفي شكل حكايات تبرز عاقبة الظلم، وسوء التدبير تارة أخرى.

فمن أمثلة الشكل الأول ما أورده الكاتب في قوله : " وكان يقال الملك الحازم ينال غرضه من أعدائه بأربعة أشياء: باللين والبذل، والمكيدة، والمجاهرة بالعداوة، في آخر الوقت، إذا رأى الفرصة [...] فإن استعمل أحد هذه الأشياء الأربعة كان ذلك فسادا في التدبير" [111].

وقوله:" الملك الحازم ينال غرضه من أعدائه بالصبر لأن الصبر مطية لا تكبو،قال بعض العلماء : إن الصحيفة الصفراء المعلقة في أعظم هياكل الفرس المكتوب فيها كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فهكذا الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر" [112].

ويضيف :" صبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى : القوة الأولى قوة الحِلم وثمرتها العفو، القوة الثانية قوة الكلأ والحِفظ وثمرتها عِمارة المملكة، القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات في حالة الحرب، ولا يُراد من الملوك الإقدام على المكافحة، فإن ذلك من

---

[107] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 70.

[108] – نفسه: 49.

[109] – فتحي فطوم: المرجع السابق، 18.

[110] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 24.

[111] – نفسه : 51.

[112] – نفسه : نفسها.

الملـوك طـيش وتغريـر ، وإنمـا شجاعـة الملـك ثباتـه حتـى يكـون قُطبـا للمحاربيـن ومَعقِـلا للمنهزمين " [113].

ويبدو اتجاه الخطاب في الأقوال الثلاثة السالفة نحو الساسة والملوك واضحا لما يتوفر عليه من نصائح، وإرشادات لهذه الطبقة تحديدا.

ومن نماذج الشكل الثاني:

" ما حُكِيَ أن عبد الله بن طاهر قال لبعض الزهاد: كم تبقى هذه الدولة فينا وتدوم ؟ قال : ما دام بساط العدل والإنصاف مبسوطا في هذا الإيوان ثم تلا قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الرعد:11]، وكان يقول: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل وحسن سياسة.

وسُئِل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) ما كان سبب توبتك ؟

قال: كنت أضرب غلاما لي، فقال : أُذْكُرِ الليلة التي يكون صبيحتها يوم القيامة فأَثَّر ذلك الكلام في قلبي.

وقول سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : بِمَ النجاة من هذا الأمر ؟ فقال : بشيء هيِّن، قال : ماهو ؟ قال : لا تأخذ شيئا إلا بحق، قال : ومن يُطيق هذا الأمر ؟ قال: من طلب الجنة وهرب من النار " [114].

أما القصص والحكايات فهي كثيرة، خاصة إذا علمنا أنه من مجموع سبعٍ وعشرين ومائة حكاية اشتمل عليها الكتاب نجد أكثر من ثلاثين وتسع حكايات تدور في قصور الملوك، والسلاطين، وتحكي أخبارهم.

وتحتوي معظم هذه الحكايات على سياسية ضمنية كثيرة كما هو الحال فيما حكاه " الهمذاني عن السلطان ملكشاه السلجوقي الذي لقي رجلا يبكي، فسأله عن سبب بكائه، فقال : ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك غيرها، فلقيني ثلاثة من الأتراك فأخذوه مني ومالي حيلة سواه، فذهب السلطان وأمر عسكره بالبحث عن السارقين، وحينما لم يجدهم رجع إلى الرجل، وقال له : هذا مملوكي، وقد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، فذهب

---

[113] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،51.

[114] – نفسه:72.

صاحب البطيخ، وباع المملوك، ثم عاد إلى السلطان، و قال : يا مولانا قد بعت المملوك بثلاثمائة دينار، فقال : أو قد رضيت ؟ قال : نعم، قال: فامض مع السلامة " [115].

يبرز الكاتب في هذه المقولة كيف ينتصر السلطان الحق للمظلومين، ويكون قريبا منهم لا يتوانى في معالجة مشاكلهم، والانتصاف لهم من الظالمين، كما نلمس في الحكايات تعاطفا بينا مع المتصوفة الذين ينتصرون بكراماتهم دائما على الوشاة، من الحاسدين الذين يرمونهم بالزندقة، وفساد العقيدة، وهذا ما نجده في حكاية ابن أبي أصيبعة التي نصها : أن وزير محمود بن صالح صاحب حلب وشى إليه بأن المَعَرِّي زنديق لا يرى إفساد الصُّور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل.

فأمر الأمير بطلبه إليه، وبعث خمسين فارسا ليحملوه، فلما وصلوا إليه أنزلهم أبو العلا دار الضيافة.

فدخل عليه مسلم بن سليمان فقال : يا ابن أخي قد نزلت بنا هذه الحادثة، الملك محمود يطلبك فإن منعناك عجزنا، وإن أسلمناك كان عارا علينا ذوي الزمام.

فقال له: هَوِّن عليك ياعم فلا بأس علينا فلي سلطان يذب عني، ثم قام فاغتسل و صلى إلى نصف الليل ثم قال لغلامه: انظر إلى المريخ أين هو ؟ قال: في كذا وكذا، فقال: زنه واضرب تحته وتدا واجعل في رجلي خيطا واربطه في الوتد، ففعل غلامه ذلك، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل، يا علة العلل، يا صانع المخلوقات، وموجد الموجودات، أنا في عزك الذي لا يرام، وكنفك الذي لا يضام، الضيوف الضيوف، الوزير الوزير، ثم ذكر كلمات لا تفهم، وإذا بهدة عظيمة فسئل عنها فقيل: الدار وقعت على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين [...] " [116].

وفي هذه الحكاية تزكية لطبقة المتصوفة، وتحذير لكل من تسول له نفسه أن يمسهم بسوء، حتى لو كان سلطانا بيده الأمر والنهي.

كما تبدي الحكايات صورة أخرى للخطاب السياسي الموجه للسلطة عندما يتحدث الكاتب عن سير الملوك السالفة بمصر، وما كان لهم من ملك عظيم في الدهور الخالية،

---

[115] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 72

[116] – نفسه : 39.

فهم على شدة قوتهم، وطول أعمارهم، وكثرة آثارهم في الأرض غيبهم الزمان، و أصبحوا في خبر كان، وفي هذا درس، وعبرة لمن يعتبر.

ونورد هنا سيرة أحد أشهر من حكموا مصر على مرِّ التاريخ، فرعون الوليد بن مصعب الذي كان عطارا بأصبهان وعندما أفلس وركبه الدين خرج منها هاربا إلى دمشق ومن ثم إلى مصر التي دخلها بائعا للبطيخ، ولما نهبه البوابون قال : ما هذا ما ههنا أحد ينظر في مصالح العباد ؟ فقالوا له : ملكنا مشغول بلذته وفوَّض الأمور للوزير وهو لا ينظر في شيء، فخرج فرعون عندئذ إلى المقابر فجعل لا يُمَكِّن أحد من الدفن إلا بخمس دراهم، فلما بلغ خبره الملك أرسل إليه وقال له: من أنت ؟ فأخبره بخبر البطيخ، وقال: ما عملت عامل الأموات إلا ليصل إليك خبري وتحضرني فأنصحك لتستيقظ لنفسك ولتحفظ ملكك وإلا ذهب منك فاستوزره وقتل الوزير فسار في الناس سيرة حسنة.

وكان عادلا سخيا يقضي بالحق ولو على نفسه، فأحبه الناس فتوفي الملك فولوه عليهم فعاش زمنا طويلا حتى مات منهم ثلاث قرون، وهو باق فبطر وتجبر وطغى، و قال: أنا ربكم الأعلى " [117].

وهكذا فالسيرة الحسنة التي كانت لفرعون ثلاث مائة سنين أو يزيد لم تغني عنه من الله شيئا لما طغى، وتجبر، وقال: أنا ربكم الأعلى.

وفي الحكايات ميزة أخرى تتمثل في النبرة العدائية تجاه الوشاة، وبطانة السوء الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، ومن نماذج هذه الحكايات ما جرى لفرعون مع سيدنا موسى عليه السلام، فحين " دخل عليه وقال له آمن بالله ولك الجنة ولك ملكك قال: حتى أشاور هامان (الوزير)، فشاوره في ذلك، فقال: بينا أنت إِلَهٌ تُعْبَد تَصِيرُ تَعْبُد!

فأنف واستكبر، وكان في بداية ولايته سلك طريق العدل والإنصاف، وإنما أهلكه أنه اتخذ بطانة سوء فاسقين مثل هامان وقارون ومن ضارعهما، ومعلوم أن الله تعالى إذا أراد بملك سوءا قيض له قرناء سوء، ولله دَرُّ القائل حيث يقول :

عَن المَرْءِ لا تَسْأل وسَلْ عَن قَرينِه فكُلُّ قَرينٍ بالمُقارَن يقتدي

إذا كُنتَ في قَومٍ فصاحِبْ خِيارَهُمُ ولا تَصْحَبِ الأَرْدى تَضِلّ وتَرْتَدي [118].

---

[117] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،، 138،139.

[118] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 141.

وعلى شاكلة هذه الحكاية ما حدث لمؤمن أل فرعون، وهو ابن عمه الذي قال لموسى إن المــلأ يتشــاورون فــي قتلــك بعــد قتلــه للقبطــي: " فَــاخْرُجِ إِنِّــي لَــكَ مِــنَ النَّاصِــحِينَ " [القصص:20]

فقد روي أن رجلين سعيا به إلى فرعون وقالا له : إنه آمن بموسى فأمرهما فرعون بإحضاره فلما أحضراه قال لهما فرعون: من ربكما ؟ قالا له: أنت، فقال للمؤمن: من ربك ؟ فقال: ربي ربهما، فتوهم فرعون أنه قصده بهذا القول، فقال للساعيين : سعيتما إلى رجل هو على ديني لأقتله ! ثم صلبهما وسلم الرجل المؤمن، فقوبل كل منهما بسوء فعله، وانعكست عليه حيلته، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله " [119].

والحكايات في هذا المعنى كثيرة في السكردان غرضها ذم تلك الأفعال الخسيسة التي لا يبحث أصحابها من ورائها سوى على مكاسب شخصية وأطماع خبيثة أولا، ثم تنبيه السلطان إلى مخاطر تلك الفئة النافذة في دواليب الحكم، وما تلعبه من أدوار سلبية – غالبا – في رسم سياسات الدول والممالك.

كما ضَمَّنَ الكاتب حكاياته أسلوبا آخر من أساليب ردع الظلم والظالمين، وهو أسلوب الدعاء الذي كان سلاح المستضعفين في وجه الطغاة والمعتدين من الحكام والمحكومين، و من ذلك ما جاء في قصة سيدنا يوسف عليه السلام " أن يعقوب عليه السلام لما قيل له: إن بنيامين سرق وأُخِذَ في سرقته طلب من روبيل كتابة رسالة إلى ملك مصر ( سيدنا يوسف عليه السلام) من جملتها قوله: : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله: أما بعد فإنا نحن أهل بيت موكل بنا البلاء [...]، وإنالا نسرق ولا نلد سارقا،فارحم ترحم واردد ولدي فإن فعلت فالله يجزيك، وإن لم تفعل، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك " [120].

إن في هذه القصة بيان لأهمية الدعاء، وحاجة الإنسان إليه وقت الشدة فيعقوب عليه السلام في كربته التي ألمت به لم يهدد الملك الذي حجز ولده بتهيئة جيش أوله على

---

[119] – نفسه: 127.

[120] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 127.

مشارف مصر، وآخره في بادية الشام، وإنما هدده بالدعاء: "...وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك " [121].

وقد أورد الكاتب أكثر من حكاية في هذا الباب منها قوله: "...شكى رجل إلى حسن البصري رجلا ظلمه فقال: إذا صليت الركعتين بعد المغرب وسلكت فاسجد وقل: يا شديد القوي يا شديد المحال يا عزيز ذللت بعزتك جميع خلقك، صل على سيدنا محمد وآله واكفني مئونة فلان بما شئت، ففعل ذلك فسمع صيحة عظيمة في الليل فسأل عنها فقيل: مات فلان فجأة " [122].

وهكذا جاءت الرسالة السياسية في السكر دان في أسلوب حكيم يعتمد الإشارة والتلميح أكثر من العبارة والتصريح، بمستويات وأشكال متنوعة تنم عن ذكاء الكاتب وسعة اطلاعه.

**5-البعد التاريخي :**

إن التاريخ بوصفه " ذلك العلم الذي تعرف به أحوال الماضيين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم، ولغتهم وعادتهم ونظمه، وسياستهم، واعتقاداتهم، وآدابهم حتى يتم معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كل أمة وجيل" [123]. نلمسه في عدة محطات في الكتاب لعل من أهمها المحطات السبعة التالية: أخبار وحوادث الفاتحين وقصة بناء القاهرة وما وقع في ضواحيها من أحداث، وسلسلة من ولي الملك من الأتراك من أول دولتهم إلى عهد السلطان الناصر حسن بن قلاوون، وفي تفسير ما أودعته خطبة الكتاب من الآثار النبوية، وأخبار الملوك السالفة في مصر، وسيرة الحاكم الفاطمي، والحوادث الواقعة في مصر.

**5-1-أخبار و حوادث الفاتحين :**

يورد لنا الكاتب من جملة الحوادث الطريفة التي وقعت للفاتحين على أرض مصر قصتهم مع نهر النيل، وجاء فيها "... و لما فتحها عمر بن العاص أتى إليه أهلها وقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك ؟ فقالوا له : إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلوا من شهر بئونة من شهور القبط، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وحملنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل.

---

[121] – نفسه: نفسها.

[122] – نفسه: 195.

[123] –عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام : دار الثقافة، بيروت لبنان، ط 4 ، 1400 هـ ، 1980 م، 1-16.

فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب عمر بن الخطاب بطاقة وكتب : إلى عمرو بن العاص إني كتبت إليك بطاقة فألقها في النيل فأخذها عمر فإذا فيها: بسم الـه الرحمان الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر.

أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك ، وألقى البطاقة قبل يوم الصليب بيوم في النيل. فلما ألقى البطاقة في النيل أصبح يوم الصليب وقد أجراه الله سبحانه وتعالى ست عشر ة ذراعا ليلة واحدة، وقطع الله تبارك وتعالى تلك السنة السّوء من أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه"[124].

ونستشف من هذه الحادثة على طرافتها أسلوب تعامل الفاتحين مع السكان الأصليين لمصر، والمخالفين لهم في الدين من الأقباط وغيرهم.

وتكمن أهمية فتح مصر زيادة على دخول أهلها أفواجا في الإسلام في بعدها الاقتصادي، وهذا ما يشير إليه الكاتب عندما يطلعنا على حصيلة خراج مصر في قوله: "... وجباها عمرو بن العاص اثنتي عشرة ألف ألف دينار، فنظر عثمان إلى عمرو بن العاص وقال : علمت أن اللقحة دَرَّت بعدك ؟ قال : نعم ولكن أجاعت أولادها ..."[125].

وهذا الخراج (أربعة عشر ألف ألف دينار) هو مكسب هام لبيت مال المسلمين لم يكن الخليفة ليستغني عنه ومن هنا تبرز أهمية مصر في دولة الإسلام.

**5-2-قصة بناء القاهرة وما وقع فيها من أحداث، والأهرام ونواحيها :**

وجاء في قصة بناء القاهرة قول الكاتب : " وأما القاهرة المحروسة فإن الأصل في بناءها جوهر القائد قائد المعز صاحب المغرب ومصر، وهو أول من ملك مصر من خلفاء الفاطميين وكان السبب في ملكه مصر أن كافور الإخشيدي صاحب مصر لما مات جهّز المُعز القائد جوهرا إلى مصر بعسكر عظيم ومعه ألف جمل من السلاح ومن الخيل ما لا يوصف.

---

[124] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 30-31.

[125]– نفسه : 34 .

فلما انتظم حاله وملك مصر ضاقت بالجند والرعية، فاختط صور القاهرة وبناها وعمل فيها القصور وسماها المنصورية وذلك في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة، فلما قدم المعز من القيروان غيَّر اسمها وسماها القاهرة"[126].

كما يطلعنا الكاتب على بعض المظاهر العمرانية والحضارية التي كانت تميز القاهرة في مرحلة من مراحلها التاريخية بقوله : "... والقاهرة نفسها سبع حارات، وهي : حارة زويلة، وحارة الروم، وحارة الديلم، وحارة كتامة، وحارة بهاء الدين، وحارة برجوان أحد أمراء الحاكم الذي بنى داخل باب النصر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وحارة العرب[...] والأصل فيها أنها كانت سبعة أبواب في دهليز قصور الخلفاء الفاطميين، وآثارها باقية إلى الآن [سنة سبع وخمسين وسبع مائه هجرية] "[127].

وتوحي لنا أسماء الحارات هذه (الروم، الديلم، كتامة، العرب) بتعدد الأجناس المشكلة لتركيبة المجتمع القاهري حينئذ، ومن ثم تعدد الثقافات، وهو بلا شك مظهر حضاري.

كما يتحفنا الكاتب بأخبار الأهرام، وما جرى لبعض الملوك، والأمراء الذين فكروا في اقتحامها، كالمأمون، وأحمد بن طولون.

وقبل ذلك يورد لنا خبر مفاده " أن الذي بناها (الأهرام) ملك يقال له سلموق بن درمسيد الذي أغرقه نوح عليه السلام بالطوفان، وأنه وَكَّلَ بكل هرم روحانيا يحفظه"[128] .

ويبدوا أن الخليفة العباسي المأمون كان أول من فكر في كشف سر هذا البناء الغامض.

يقول الكاتب : " ولما فتح المأمون الثلمة الموجودة في الهرم الكبير وانتهى إلى عشرين ذراعا [...] وجد فيها ذهب مضروب وزنه ألف دينار، فلما حسبوا مقدار ما أنفقوه على الثلمة وجدوه بقدر ذلك المال لا يزيد ولا ينقص فعجب من معرفتهم مقدار ما ينفق عليه و قال : كان هؤلاء القوم بمنزلة لا توازى ولا ندركها نحن ولا أمثالنا"[129].

وهي حكايات وأحداث على ما تحتويه من بعد عجائبي، تحاول أن تثبت لنا صمود هذا المعلم وثباته رغم تعاقب الدول والممالك، وكذا تفوق أهل مصر في مجال الهندسة و

---

[126]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 35.

[127]– نفسه، 193.

[128] –نفسه، 201.

[129] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،201.

الحضارة على غيرهم، كما حكم بذلك المأمون في قوله: "كان هؤلاء القوم بمنزلة لا توازى ولا ندركها نحن ولا أمثالنا"[130] .

ويؤكد هذا المعنى ما روي في أخبارها أن عليها مكتوبا "بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمهما من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وكنا نكسوها حريرا فليلبسهما من يأتي بعدنا حصرا"[131].

وهي نبرة تحدي واضحة تنم عن اعتزاز القوم (المصريون) بأنفسهم، وثقتهم بأعمالهم ومهاراتهم.

**5-3-سلسلة من ولي الملك من الترك من أول دولتهم إلى سبع وخمسين وسبع مائه:**

جاء في الحكمة العربية، "علم الملوك النسب والخبر، ودرس كتب الحروب والسير لذا فالتاريخ أعمار لا يدركها الفناء"[132].

لأجل ذلك عرض لنا بن أبي حجلة من ولي الملك من الترك من أول دولتهم إلى عهد مولاه السلطان الناصر حسن بن قلاوون.

وقبل شروعه في بيان سلسلة من جلس على سرير الملك من الأتراك، ذكر لنا قصة نهاية الدولة الأيوبية، حتى يحافظ على تسلسل الأحداث وحبكها.

يقول: "آخر ملوك مصر من بني أيوب الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، وكان دولة مملكته إحدى وسبعين يوما ثم قُتل، وكان السبب في قتله -أنه لما مات الملك الصالح والده في مصر- أخذ في إبعاد مماليك أبيه وتقريب مماليكه الذين وصلوا معه إلى الشرق.

فاجتمع جماعة من مماليك أبيه وقتلوه يوم الاثنين السادس والعشرون من شهر محرم سنة ثمان وأربعين و ستمائه"[133].

وبعد وفاة الملك الصالح اتفق الأمراء من المماليك، وملكوا شجر الدر سريته.

---

[130] -نفسه، و نفسها.

[131] -نفسه، 200.

[132] -عبد الرحمن الجيلالي: المصدر السابق، ص 13.

[133] - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،42.

ولقـي هـذا الصـنيع معارضــة شـديدة مـن الكثيـر مـن المسـلمين وعلـى رأسـهم الخليفـة العباسـي المستعصـم الـذي طالبهـا بالتنـازل عـن الملـك "فتزوجـت الأميـر عـز الـدين أيبـك التركماني وكان مملوك زوجها الملك الصالح، وخلعت نفسها من الملك وسلَّمته إليه في آخر شهر ربيع الآخر، فكانت مدة مملكتها ثلاثة شهور... فكان عز الدين أيبك الذي تلقب بالملك المعز أول من ملك من الترك"[134].

وتعاقب على ملك مصر من الأتراك بعد الملك المعز إلى عهد السلطان الناصر حسن بن قلاوون ثمانية عشر ملكا، كان أولهم : المنصور علي بن أيبك، وآخرهم الملك الصالح بن محمد بن قلاوون.

وقد جاء سرد الكاتب لأخبار الملوك من المماليك الأتراك في أسلوب مميز يعتمد :

أولا: حسن الحبك حيث نلمس ترابطا، وتسلسلا منطقيا بين الأحداث المروية. فهو لا يورد خبرا أو حدثا إلا بعدما يهيئ ظروفه، وأسبابه.

ثانيا : الإيجاز في الأخبار وهو ما ينم عن تمكنه من ناصية اللغة وتطويعها لخدمة أغراضه الفنية والجمالية.

ثالثا: التأريخ الدقيق للأحداث خاصة ما تعلق بأسرة السلطان حسن بن قلاوون حيث لمسنا الكاتب لا يكتفي بذكر السنة التي وقع فيها الحدث، بل يحصر على إيراد الشهر، واليوم، وحتى الساعة كما هو الحال ما قوله في مولد والد السلطان حسن : "... وكان مولد السلطان الملك الناصر في الساعة السابعة من يوم السبت سادس عشر المحرم سنة أربع و ثمانين وستمائة، وتوفي يوم الأربعاء التاسع عشر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين و سبعمائة ودفن ليلة الخميس بالمدرسة المنصورية"[135] .

وقوله في ولاية السلطان الناصر حسن: " ... جلس على سرير الملك بكرة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان المعظم قدره سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بعد خلع أخيه الملك المظفر"[136].

---

[134] –نفسه، 43.

[135]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 48.

[136]–نفسه، 50.

وتثبت لنا هذه الأقوال أهمية الحدث لدى الكاتب عامة، والحدث في حياة السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون تحديدا.

**5-4-في تفسير بعض الآثار النبوية:**

سعى الكاتب في هذا الباب إلى تفسير ما أودعه في خطبة (ديباجة) الكتاب مجملا من الآثار النبوية، من ذلك قوله : "وتولى يوم الأحزاب نصره"[137] في بيانه للمقصود بيوم الأحزاب يقول: " وكان في غزوة الخندق وهي إحدى السبع غزوات التي قاتل فيها النبي (ﷺ)، لأنه لم يقاتل إلا في سبع، وهي : غزوة بدر، وأحد، والخندق، وبني قريضة، و المصطلق ، وخيبر، والطائف"[138] .

ويسرد بعدها -في إيجاز- تواريخ أهم هذه الغزوات، وأطرافها، والجند المشاركين فيها، عدة وعتادا . مثل قوله في غزوة بدر الكبرى: " كانت بعد سنة وثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وأصحابه يومئذ رضي الله عنهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا وهو عدد قوم طالوت، والمشركون بين السبعمائة والألف فكان ذلك يوم الفرقان يوم التقى الجمعان لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل"[139].

ويتم تفسيره لما جاء في الخطبة بالكلام على منائحه السبع، وإمائه السبع، وأولاده السبع، وحراسه السبع، ومن ضاهاه في الشبه وهم سبع أيضا.

**5-5-في أخبار الملوك السالفة بمصر:**

في هذه المحطة يبرز لنا الكاتب -في سعيه المتواصل لتأكيد أهمية مصر- أن هذه الأرض كانت مهدا لأعظم الحضارات، وأنه تعاقب على ملكها أشهر الملوك في التاريخ، ويورد في سبيل إثبات ذلك قول صاعد الأندلسي التالي :

" إن أهل مصر كانوا أهل ملك عظيم في الدهور الخالية، والأزمان السالفة وكانوا أخلاطا من الناس ما بين قبطي ويوناني، وعمليقي إلا أن أكثرهم قبط، وأكثر من ملك مصر الغرباء، فصار بعد طوفان نوح بمصر علماء بضروب من العلوم ولاسيما علم الطلسمات

---

137- -نفسه، 3.

138- نفسه، 89.

139 -نفسه، نفسها.

والنرنيجات [ما يُحتال به في السّحر] والكيمياء وطلسماتهم إلى الآن، لم تنفد وحكمهم باهرة و عجائبهم ظاهرة"[140] .

إن تشكل المجتمع المصري من خليط من الأجناس ما بين قبطي، ويوناني، و عمليقي، دليل على تنوع التركيبة البشرية للمجتمع المصري، ومن ثم تعدد روافده الثقافية، والحضارية، كما هو وجود علماء بهذا الإقليم بُعيد طوفان نوح عليه السلام، وبقاء حكمه الباهرة دليل على عراقة الحضارة المصرية، وإيغالها في التاريخ.

"وكانت مصر خمسة وثمانين كورة، في كل كورة رئيس من الكهنة وهم السحرة و كان الذي يعبد منهم الكواكب السبعة سبع سنين يسمونه ماهرا والذي يعبدها تسع وأربعين سنة لكل كوكب سبع سنين يسمونه فاطرا، وهذا يقوم له الملك إجلالا ويجلسه إلى جانبه، ولا يتصرف إلا برأيه"[141]. وتؤكد هذه المقولة إضافة إلى استشراء ظاهرة السحر عند المصريين، رمزية العدد سبعة وقدسيته عندهم.

وفي سياق تأكيده لمكانة السحر والسحرة في الحضارة المصرية يقول :

" وملك مصر سبعة من الكهنة، وكانت لهم الأحوال العجيبة، والأحوال الغريبة.

الكاهن الأول هو أول من عمل مقياس لزيادة النيل.

الكاهن الثاني: عمل ميزان في هيكل الشمس يميز بين الظالم والمظلوم.

الكاهن الثالث: عمل مرآة من المعادن السبعة فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما أخصب منها، وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث.

الكاهن الرابع: عمل شجرة لها أغصان من حديد بخطاطيف إذا اقترب منها ظالم اختطفته تلك الخطاطيف.

الكاهن الخامس: عمل شجرة من نحاس تصطاد الوحوش.

الكاهن السادس صنع درهما يعدل كل ما يقابله في الميزان خفيفا كان أو ثقيلا.

الكاهن السابع: كان يجلس في السَّحاب في صورة إنسان عظيم."[142] .

---

[140] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،151.

[141] –نفسه، 154.

[142] –ينظر : ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،154.

وهي حوادث على الرغم من كونها أقرب إلى الأسطورة والخيال منها إلى الحقيقة، تغدوا مقبولة –في نظر الكاتب على الأقل– في سبيل إضفاء صورة العظمة والجلال على هذا الإقليم –مصر – إقليم العمالقة والعظماء.

**5-6–في أخبار الحاكم الفاطمي:[143]**

مما أورده الكاتب في سيرة الحاكم من أمور شنيعة، وأحكام مخالفة للشريعة قول الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله في تاريخه «البداية والنهاية»: "كان يعني الحاكم جبارا عنيدا وشيطانا مريدا [...] كان قبحه الله تعالى كثير التلوُّن في أقواله، وكان يروم أن يدعي الإلهية كما ادعاها فرعون في زمن موسى عليه الصلاة والسلام وكان أمر إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوم الناس صفوفا إعظاما لذكره و احتراما لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر مملكته حتى الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قام خروا سجدا حتى أنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم"[144].

وزاد على كل هذه المخالفات والمظالم " أن ادعى علم الغيب، وكان يقول: فلان قال في بيته: كذا وكذا، وفعل كذا وكذا، وذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي يدخلن إلى البيوت فيعرفنه بذلك، فرفعت إليه بطاقة مكتوب فيها :

بِالجُورِ والظُّلْمِ قد رَضِينَا     وليس بالكُفْرِ والحماقه
إن كنتَ أوتيتَ عِلمَ غَيبٍ     بيّن لنا كَاتِبَ البِطاقَه

فحين قرأها سكت عن الكلام في المغيبات"[145] .

وعلى العموم لا تخرج مختلف الأخبار والروايات التي أوردها ابن أبي حجلة رغم تعدد مصادرها عن وصف الحاكم بالظالم المستبد.

ويوجز سيرة الحاكم بقوله : "وكانت أمور الحاكم متضادة لأنه كان عنده شجاعة و إقدام وجبن وإحجام ومحبة في العلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلاح وقتل للصُلحاء

---

[143] –الحاكم الفاطمي هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم بأمر الله (985–1021م، 386–411هـ) الخليفة الفاطمي السادس، خلف أباه العزيز بالله، اشتهر بالظلم والاستبداد. (ينظر ابن أبي حجلة التلمساني: سكردان السلطان) .

[144] –نفسه، 167.

[145] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،167–168.

والغالب عليه السخاء ويبخل بالقليل ولبس الصوف سبع سنين يوقد عليه الشمع ليلا و نهارا، ثم جلس في الظلام مدة و قتل من العلماء ما لا يحصى.

وأمر بسب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأمر بكتب ذلك على أبواب المساجد و الشوارع ثم محاه بعد مدة"[146] .

والحقيقة أن إيراد سيرة الحاكم بما فيها من أمور شنيعة وأحكام مخالفة للشريعة يبعث على التساؤل عن الغاية والقصد من وراء ذكرها ما دامت تنافي –أو تخرج على الأقل– عن سياق التمجيد و التعظيم لتاريخ مصر و حضارتها الذين نهجه الكاتب ؟

نفترض لذلك الأسباب التالية :

أولا: كون الحاكم الفاطمي أحد الملوك المتقدمين بمصر والقاهرة، الذين أخذ الكاتب على عاتقه إيراد أخبارهم.

ثانيا: ما جاء في سيرته من أحوال عجيبة، وأمور غريبة.

ثالثا: ما جرى في سيرته من العدد سبعة.

**5-7-الحوادث الواقعة بمصر:**

رصد لنا الكاتب في هذا الباب بعض مما وقع من حوادث عجيبة واتفاقات غريبة وقعت لبعض الملوك والسلاطين في مصر وغيرها من بلاد المسلمين من ذلك قوله : "... سنة سبعمائة فيها أُلبس النصارى الأزرق، واليهود الأصفر، والسامرة الأحمر لعنهم الله تعالى ليقل أذاهم و يُعرف المجرمون بسيماهم..."[147] .

وكان هذا الأمر بقرار من السلطان الملك الناصر، لتمييز المسلمين عن غيرهم من أهل الذمة.

ولإثبات ما لهذا السلطان من هيبة، وما له من علاقات طيبة بملوك الشرق والغرب يورد لنا الكاتب ما وقع بينه و بينهم من مراسلات. يقول : "... وأهدى أزبك ملك الشرق إلى السلطان الملك الناصر هدية من جملتها جلد دب أبيض طوله سبعة أذرع وذلك في سنة

---

[146] –نفسه، 169.

[147] – نفسه : 179.

أربع وعشرين وسبعمائة وأهدى إليه أيضا أبو ثابت ملك الغرب هدية من جملتها سبعمائة دابة ما بين خيل، و بغال، و حمير، و جمال"[148].

و لأن الهدايا من أساليب التودد والتقرب، خاصة إذا كان هدفها الملوك والسلاطين فإن هذه الزاوية توحي لنا بالمكانة المميزة التي كان يحظى بها السلطان الملك الناصر، والتي جعلت الملوك يسارعون إلى خطب وده.

ويسرد علينا بعدها ما جاء من حوادث في سير بعض الملوك مثل : الملك المظفر بيبرس وما وجد في خزائنه من كنوز، وما ألم به من ملمات كان فرجها بتوزيعه للصدقات.

والملك العادل كتبغا، وما وقع في عهده من غلاء فاحش كان له كبير الأثر في حياة العامة، والمُعدَمين من الفقراء والمساكين، وكافور الإخشيدي وما كان له من مواقف مشرّفة وقت الأزمات، وما وقع بينه وبين خاصته وبعض شعراءه من حكايات، وطرف من قصة حب سيف الدولة والمتنبي، وما قاله من روائع الأبيات.

لينتقل بنا إلى بعض الاتفاقات العجيبة، والأمور الغريبة في تاريخ الملوك والأمراء.

يقول: "... من غريب الاتفاق العجيب أن أول من بنى أنطاكية اسمه بالعربية الملك الظاهر، وأول من خرَّبها الملك الظاهر بيبرس"[149] وهذا الاتفاق الغريب نفسه يتكرر لدى ملوك مصر العُبيديين (الفاطميين) "فكان أولهم عبد الله وآخرهم العاضد واسمه عبد الله.

ومثله في الغرابة ما وقع لملوك الإسلام الأوائل من بني سفيان، فأول من تأمر من المسلمين منهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم معاوية بن يزيد، وأول الأمراء من بني مروان مروان بن الحكم، وآخرهم مروان بن محمد الملقب بالحمار.

والأكثر غرابة من كل ذلك ما حكاه الصَّولي : أن الناس يرون كل سادس يقوم بالأمر منذ أول الإسلام لابد أن يُخلع فالنبي (ﷺ)، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن خلع"[150].

وهو أمر مضطرد في سير الملوك والأمراء ولإثبات صحة ما ذهب إليه الصولي، وأن الأمر لا يقتصر على سير الأمراء من بني أمية على تعاقبهم وبني العباس على كثرتهم،

---

[148] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 180.

[149] –نفسه، 173.

[150] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،184.

استعرض لنا الكاتب كيفية اضطراد هذا الاتفاق الغريب في تاريخ الممالك الإسلامية المتعاقبة كلها، مثل: العُبيديين، والأيوبيين، والأتراك، وبني قلاوون، حتى أُسرة مولاه السلطان الملك الناصر، وهذا من غريب الاتفاق الذي قل من نبَّهَ عليه.

**6-البعد الجغرافي:**

تفطن ابن أبي حجلة لقيمة تحديد الموقع الجغرافي لمصر في بيان أهمية هذا الإقليم العظيم بين بقية الأقاليم.

لذا نجده خصص بابا كاملا لذكر حد هذا الإقليم وبعض أخباره، وأخبار القاهرة و مصر والنيل.

يقول : "حد إقليم مصر من الشجرتين بين رفح والعريش إلى أسوان طولا وعرضا من برقة إلى أيلة، وهي مسيرة أربعين ليلة ثلاثون ليلة طولا وعشر ليال عرضا"[151].

ولإيضاح موقع الإقليم بين جملة الأقاليم السبعة يقول:

"فالإقليم الثالث الذي من جملته إقليم مصر، مبدؤه من الشرق فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند ثم كامل وكرمان وسجستان وفارس والأهواز والعراقيين والشام ومصر والإسكندرية وفيه من البلاد المعروفة غزنة وكابل وسجستان وبست وكرمان.

ثم يقطع أسفل مصر ويمر على تنيس ودمياط والفسطاط والفيوم.

ومن المغرب برقة وإفريقية والقيروان وقبائل العرب والسوس وبلاد طنجة أو سبتة، و ينتهي إلى البحر المحيط وطول وسطه من المشرق إلى المغرب ثمانمائة ألف وسبعمائة و أربعة وسبعون ميلا وثلاث وعشرون دقيقة، وعرضه ثلاثمائة وثمانية وأربعون ميلا و خمس وأربعون دقيقة وهو في قول الفرس للمريخ، وفي قول الروم لعطارد، وله من البروج الحمل"[152] .

وتُبرز القطعة السالفة أسماء المدن والبلدان الواقعة في شريط الإقليم الثالث عامة، الذي من جملته إقليم مصر، ومبدأ هذا الإقليم ونهايته، وموقعه الجغرافي بحدوده الشرقية والغربية.

كما ولى الكاتب اهتمامه شطر نهر النيل منبع خيرات مصر، وشريان حياتها الاقتصادية، وأحد أهم المظاهر التي تميز بنيتها الجغرافية، فأورد لنا أخبارا، ومعلومات شتى

---

[151] -نفسه، 28.

[152] - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،29-30.

حوله من قبيل أصل منبعه الذي كان "للناس فيه أقوال فذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج، وهي بجبل ق وأنه يخرق البحر الأخضر ب قدرة الله تعالى ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد والمرجان فيسير ما شاء الله تعالى إلى أن يأتي إلى بحيرة الزنج [...].

وقال قوم مبدؤه من خلف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة.

وقال قوم : مبدؤه من جبل القمر وأنه ينبع من اثنتي عشرة عينا"[153]

ولأن النيل ينطوي على هذه الأهمية الكبرى في حياة المصريين، فقد شكل ارتفاع منسوب مياهه بشارة خير بالنسبة إليهم، ولأجل هذا حرص الكاتب على التأريخ للسنوات التي وقعت فيها تلك الزيادات في منسوبه.

يقول بعد ما أورد قصة البطاقة التي ألقاها عمر بن العاص في النهر، وكانت سببا في جريانه، وإبطال سنة إلقاء عروس حسناء فيه "واتفق أن النيل المبارك زاد في تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها في دول الإسلام [...] لأنه تجاوز عشرين ذراعا، ثم استمر يجري في ذلك كل سنة على غير عادته في السنين الماضية، وبطلت تلك السنة السيئة"[154].

ولإضفاء البعد العجائبي على هذا الحدث – وهو ديدنه في هذا الكتاب– يضيف : "ومن غريب ما وقع في زيادته في تلك السنة أنه زاد تسعة عشر إصبعا من تسع عشرة ذرعا في التاسع عشر شعبان، وهذا اتفاق غريب"[155].

بيد أن هذه الغرابة تتوارى، ويصبح لا معنى لها إذا علمنا أن هذا النهر مبارك من الله، وهو ما نستشفه فيما ذكره المهدوي في تفسيره "عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الله تعالى سخر للنيل كل نهر على وجه الأرض في المشرق والمغرب وذلله له، فإذا أراد الله تعالى أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فإذا انتهى جريانه إلى ما قدره الله تعالى أمر كل نهر أن يرجع إلى عنصره"[156]. إذا هو نهر مبارك بل مقدس.

**7–البعد الحضاري:**

---

153 –نفسه، 33.

154 –نفسه، 32

155 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،32.

156 –نفسه : نفسها .

يتجلى البعد الحضاري خاصة في المظاهر العمرانية، التي حرص الكاتب على تعدادها، وبيان معالمها.

ومن ذلك قصة بناء القاهرة، وسبب توسعتها، وفيها يقول : "... فلما انتظم حاله – يقصد القائد جوهر الصقلي– وملك مصر ضاقت بالجند والرعية فاختط سور القاهرة وبناها وعمل فيها القصور وسماها المنصورية، وذلك في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة، فلما قدم المعز من القيروان غير اسمها وسماها القاهرة"[157] .

ويظهر أن تشييد الأسوار" من المعايير الحضارية التي كانت تميز المدينة في غابر الأزمان، إضافة إلى كونها وسيلة للتحصين وحفظ النفس والمال والعرض حتى أن الفقهاء جعلوها في عداد البناء الواجب"[158].

وقد أورد الكاتب روايتين في سبب تسمية القاهرة بهذا الاسم:

الأولى : تفيد أن : "المنجمين الذين جمعهم جوهر الصقلي، وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر أساسها، وطالعا لرمي الحجارة الطين فيه هم الذي أطلقوا عليها هذا الاسم.

والثانية: مفادها أنها سميت بذلك نسبة إلى قبة القاهرة التي كانت في قصور الفاطميين"[159].

وتكشف لنا هذه الأخبار إضافة إلى سبب تسمية القاهرة وتاريخ بناءها عن معلومات جزئية لا نكاد نعثر عليها في مصادر تاريخية صرفة كما هو الحال مع مراحل البناء، ومواده من حجارة، وطين، وخشب، والقائمين عليه، وارتباطه بالمنجمين، وهو ما يؤشر على أهمية الفئة في ذلك الظرف المكاني والزماني كما يعطينا صورة ولو جزئية عن البنية الفكرية والعقدية لذلك المجتمع.

وتنقلنا بعد ذلك في رحلة سياحية لأهم المواضع التارخية، والانجازات الحضارية التي تشُدُّ انتباه الزائرين لهذا الإقليم.

مثل: القاعات السبع التي بناها السلطان الملك الناصر بن قلاوون في قلعة الجبل المحروسة وما في خزائنها الكبرى من حواصل سبعة.

---

[157] – نفسه: 35.

[158]–إبراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي، 131.

[159] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 35.

وحارات القاهرة السبع، وهي : حارة زويلة، وحارة الروم، وحارة الدَّيلَمْ، وحارة كتامة، وحارة بهاء الدين، وحارة برجوان أحد أمراء الحاكم الذي بنى جامع القاهرة، وحارة العرب"[160]
.

"السبع سقايات وهو عبارة عن سبع أنابيب ماء يشرب منها الناس، والسبع قبيبات التي بالقرب من الحكائر "[161]

ويأخذ بعدها إلى القبور السبعة التي اشتهرت عند المصريين بقضاء الحاجة [...] وهي" قبر ذي النون المصري، وقبر أبي الخير الأقطع، وقبر أبي الربيع، وقبر القاضي بكار، وقبر أبي بكر المزني، وقبر القاضي كتانة، وقبر أبي حسن الدينوري"[162].

ثم بساتين الوزير التي في بركة الحبش، والتاج والسبعة وجوه، وهو مكان مشهور ظاهر القاهرة، هو من متنزهاتها الحسنة يقصده الناس في أيام الربيع"[163] .

ونلحظ في المواضع، والمنجزات الحضارية التي عددها الكاتب زيادة على تنوعها اقترانها بالعدد سبعة: (القاعات السبع، والحواصل السبع، والسبع سقايات، والسبع قبيبات، والقبور السبعة).

وينفي هذا الارتباط–في تقديرنا– اعتباطية الاختيار من جهة، ويؤكد رغبة الكاتب الملحة في رسم صورة مثالية لهذا الإقليم ، الإقليم السابع، لجريان العدد سبعة بما يحمله من بعد رمزي، وقدسي – فيه بهذا الشكل الملفت.

ويعرج بنا بعددها إلى الأهرام إحدى عجائب الدنيا السبع[164]، فيورد لنا ما جاء في تحديد موقعه، وتحقيق أبعادها، وبيان أهميتها، وعظمة بنائها، وما دار حولها من أخبار وحكايات وأساطير.

---

[160] – نفسه : 193.

[161] –نفسه : نفسها.

[162] –نفسه: 194.

[163] –نفسه: 196.

[164] –وهذه العجائب هي: حدائق بابل، والهرم الأكبر، ومنارة الإسكندرية، وتمثال زيوس وتمثال رودس، وضريح هاليكارناسوس،وهيكل أو معبد ارتيميس.

يقول وذكر الشرشيني في (شرح المقامات):" إن بين الجيزة والأهرام سبعة أميال والميل ألف باع والباع أربعة أذرع والذراع أربعة وعشرون أصبعا والأصبع ست شعيرات [...] والشعيرة ست شعيرات من ذنب البغل .."[165]

وهي دقة متناهية ليست في حاجة إلى تعليق.

ويضيف في تحديد موقعها: وقال الزمخشري: هما-يعني الهرمين- على فرسخين[الفرسخ ثلاثة أميال] من الفسطاط كل واحد أربعمائة ذراع عرضا- والأساس زائد على ذلك، وهو مبني بحجارة المرمر، وهي منقولة من مسافة أربعين فرسخا، من موضع يعرف بذات الحمام فوق الإسكندرية[166] .

ومما أورده في أبعادها، وما في محتواها قول المسعودي " طول كل واحد منها وعرضه أربعمائة ذراع، وأساسهما نازل في الأرض مثل طولهما في العلو وفي كل هرم منها سبعة بيوت، على الكواكب السبعة السيارة، كل بيت منها باسم كوكب ورسمه[167].

ويختم كل هذا بما روى حولها من أخبار، وحكايات، وأساطير، كما هو الحال في قولهم"إن عليها مكتوبا بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدهما من يريد ذلك في ستمائة فان الهدم من البناء، وكنا نكسوها حريرا. فليلبسها من يأتي بعدنا حصرا ..."[168].

وتكشف عن نبرة تحدي واضحة، تشعر من قارئها على شدة اعتزاز القوم بأنفسهم، وفخرهم بقوتهم.

والملاحظ أن الكاتب علاوة على تحديده لبعض المواقع التاريخية والمنجزات الحضارية يزودنا بأخبار في أصل بنائها، وما ارتبط بها من معتقدات شعبية، وتقاليد.

ونظرا " لاهتمام سلاطين المماليك الشديد بفن العمارة، ورغبتهم القوية في تشييد القصور، والمدارس، والمساجد، والأضرحة.." [169].

حرص الكاتب على إدراج كل ذلك ضمن مناقبهم، ومفاخر أعمالهم.

---

165 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،198.

166 –نفسه: 199

167 – نفسه: نفسها.

168 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،200.

169 –خالد إبراهيم يوسف:الشعر العربي أيام المماليك، 75.

يقول في عرضه لسيرة السلطان الملك المنصور قلاوون، وتعداده لبعض انجازاته: "... وله في القاهرة الأوقاف المبرورة، والمدرسة المشهورة، والبيمارستان [المشفى] الذي هو من حسنات الزمان..." [170].

وقد لعب تجبيس الأوقاف، وتشييد المدارس، والشافي، كمنجزات حضارية دورا مهما في الحياة الثقافية، والاجتماعية، لما لها من كبير الأثر في استمرار هذه المدارس، وأداء الوظائف التي اضطلعت برسالتها[171].

وأبرز الكاتب في مواضع أخرى أسماء هذه المدارس، والمنشآت كما هو الحال مع المدرسة المعظمة أو الصرغتمشية نسبة إلى المقر السيفي على مذهب الإمام أبي حنيفة، والأشرفية التي بقلعة الجبل المحروسة نسبة إلى السلطان الملك الأشراف خليل والخانقاه التي تشرفت من طلبة الصوفية بالعلم والعمل[172].

## المبحث الثاني : التجليات الكلامية في النص المنقبي.

نحاول في هذا المبحث الكشف عن مختلف التجليات الكلامية التي تضمنها النص المنقبي في السكردان، والتي يشكل الخبر أحد أهم مكوناتها؛ كونه التجلي الكلامي الأبرز بينها، والذي لا يكاد يخلو باب من أبواب الكتاب منه.

ونأخذ الخبر هنا بمفهومه الواسع الذي ندرج ضمنه " الحكاية كونها مجموعة أخبار، والقصة التي تتألف من مجموعة حكايات، والسيرة باعتبارها مجموعة قصص "[173].

### 1- الأخبــار:

ورد الخبر بأغراض ومقاصد مختلفة، ومتنوعة منها :

**1-1 : إيصــال المعرفــة :** كما في ذكره لخاصية العدد سبعة، وهو المكون الأساسي لمجمل أخبار الكتاب.

من ذلك قول صاحب النسمات الفائحة وغيره من أرباب علم الرياضة " أن السبعة أول الأعداد الكاملة لأنها جمعت العدد كله لأن العدد أزواج وأفراد، فالأزواج منها أول وثان

---

170 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،54.

171 – إبراهيم القادري بوتشيش، 138.

172– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،59.

173 -ينظر : سعيد يقطين : المرجع السابق ، 195 .

فالاثنان أول الأزواج والأربعة عدد ثان والثلاثة أول الأفراد والخمسة فرد ثان فإذا جمعت الزوج الأول مع الفرد الثاني، أو الفرد الأول مع الزوج الثاني كانت سبعة وهذه الخاصية لا توجد في عدد غير السبعة "[174].

وما أورده في باب الدعاء من نصائح تحمل بُعدا تعليميا واضحا.

يقول :"... ومما جاء في آداب الدعاء أن يترصد الإنسان الأوقات الشريفة كما بين الآذان والإقامة وحالة السجود ووقت السَّحر وأن يدعو مستقبلا القبلة ويرفع يديه ويمسح بهما وجهه بعد الدعاء وأن لا يرفع بصره إلى السماء عند الدعاء، لما ورد في النهي عن ذلك وأن يُخفض صوته لقوله تعالى :﴿ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الأعراف :205] وألا يتكلف السجع، ويأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع، وكانوا لا يزيدون في الدعاء عن سبع كلمات فما دونها كما ترى في آخر سورة البقرة "[175].

إضافة إلى ما أورده في ذكر السبع الزهرات التي تجتمع بمصر في صعيد واحد : "... وهي النرجس وهو أول ما نقدم ذكره، والبنفسج، والبان، والورد المستوي ويُعرف بالقُحابي، والزهر، والياسمين، والورد النصيبي، وهو آخرها. فهذه السبع زهرات التي يلهج المصريون بذكرها وتجتمع في مصر في صعيد واحد "[176].

ومن خصائص هذا النوع من الأخبار ؛ التي غايتها إيصال المعرفة :

أولا : تميزها بلغة علمية تقريرية، يرد فيها المعنى بقدر اللفظ.

ثانيا : صياغتها مختصرة، ودقيقة ؛ تحقق المعنى المقصود دون زيادة.

ثالثا : اشتمالها على فكرة محددة غالبا.

رابع : اعتمادها أدوات التعليل، والتوكيد.

**1-2 : خلق الانفعال لدى المتلقي :** كما يظهر في الحكايات الممزوجة بالمواعظ من قبيل قول أبوالعيناء : " كان لي خصوم ظلَمةٌ فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دواد القاضي فقلت : تضافروا علي وكانوا يدا واحدة، فقال : ﴿ يَدَ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم ﴾ [ الفتح :10 ] فقلت :

---

[174] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 13 .

[175] – نفسه : 196 .

[176] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 207 .

إن لهم لمكرا، فقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [ فاطر: 43 ] فقلت : إنهم كثيرون، فقال : ﴿ كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ البقرة :24 ] "[177].

وماحكاه ابن قتيبة عن كُثيِّر الذي دخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: بحق علي بن أبي طالب هل رأيت أعشق منك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لو أنشدتني بحقك أخبرتك، قال : نشدتُك بحقي إلا أخبرتني ؟ قال : نعم، بينا أسير في بعض الفلوات إذا أنا برجل قد نصب حبالا، فقلت : ما أجلسك هنا ؟ قال : أهلكني وأهلي الجوع فنصبت حبالي هذه لأصيب لهم شيئا يكفينا ويعصمنا من الجوع يومنا هذا. فقلت : أرأيت إن أقمت معك وأصبتُ لهم شيئا تجعل لي منه جزءاً ؟ قال : نعم، فبينا نحن كذلك إذ وقعت ظبية في الحِبال فخرجنا نبتدرُ فبدرَني إليها فحلَّها وأطلقها، فقلتُ: ما حمَلَك على هذا ؟ قال: دخلتني لها رِقَّةٌ لِشَبَهِها بليلى ! "[178].

ولعل ما يميز هذا النوع من الأخبار توفرها على خاصية الحوار؛ وهو ما أضفى عليها بعدا دراميا واضحا لعله أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في خلق الانفعال، والتفاعُل لدى المتلقي.

**3-1 : التَّفَكُّه والظَّرف** : وقد أورد الكاتب أخبارا كثيرة بهذا القصد مراعاة لمقام السلطان ( صاحب المقام الشريف ).

ومما جاء في هذا الباب " ما حكاه أبو الهيثم أن الغُراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره. قال ابن الأعرابي : وإنما سمَّت العرب الغُراب أعور لأنَّه يُغمض أبدا إحدى عينيه مُقتصرا على الأخرى من قوة بصره، قال بشار بن بُرد [179] :

وَقَدْ ظَلَمُوهُ حِينَ سَمَّوْهُ سَيِّداً          كَمَا ظَلَمَ النَّاسُ الْغُرَابَ بِأَعْوَر

ومن أمثلة الأخبار الطريفة " ما رواه مالك بن أنس رضي الله عنه في " الموطأ " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل رجلا عن اسمه فقال : شهاب بن حُرقة، فقال : ممن

---

177 – نفسه : 53 .

178 – نفسه : 74 .

179– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 21 .

؟ قال : من أهل حَرَّةِ النار، فقال : وأين مسكنك ؟ قال : بذات لظى، فقال : أدرك أهلك فقد احترقوا. فكان الأمر كما قال عمر رضي الله عنه "[180].

ومن شاكلة هذه الأخبار ما اتفق لابن الجوزي رحمه الله تعالى " وذلك أنه وقع نزاع بين السنة والشيعة ببغداد في المفاضلة بين أبي بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما، فرضيَ الكُل بما يُجيب به الشيخ أبو الفرج بن الجوزي، فأقاموا شخصا فسأله عن ذلك وهو على الكُرسي في مجلس وعظه فقال : أفضلهما من كانت ابنته تحته ثم نزل في الحال لئلا يُعاودوه في ذلك، فقال السنة هو أبو بكر رضي الله عنه لأن ابنته عائشة رضي الله عنها كانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الشيعة : هو علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لأن فاطمة رضي الله عنها بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تحته وهذا من لطيف الأجوبة ولو حصل بعد الفكر التام كان في غاية الحُسن.

وأنشد رحمه الله تعالى في بعض مجالس وعظه :

أَصْبَحْتُ أَلْطَفَ مِنْ مَرِّ النَّسِيمِ سَرَى        عَلَى الرِّيَاضِ يَكَادُ الْوَهْمُ يُؤْلِمُنِي        مِنْ
كُلِّ مَعْنىً لَطِيفٍ أَجْتَلِي قَدَحاً        وَكُلُّ نَاطِقَةٍ فِي الْكَوْنِ تُطْرِبُنِي

فقام إليه إنسان وقصد العبث به فقال له : يا مولانا : وكل ناطقة في الكون تُطربني فإن كان الناطق حماراً ؟ فقال له الشيخ : أقول له : يا حمار اُسكُت "[181].

ومن جملة خصائص هذه الأخبار نذكر :

أولا : صيغ الحكي أو الإخبار من قبيل : " ماحكاه، وما روي، وما رواه "، والتي كانت بمثابة افتتاحيات قدم بها لجل أخباره المروية.

ثانيا : التوثيق : حيث حرص الكاتب على توثيق أخباره، بذكر السند ( سلسلة الرواة ) ومصادر الأخبار.

ثالثا : الإيجاز : يشكل الإيجاز خاصية مميزة في هذا النوع من الأخبار إذ لا تتجاوز في معظمها البضعة أسطر على الرغم من قالبها الحكائي.

رابعا : تركيزها على الحدث.

خامسا : البعد العجائبي الذي وسم معظمها.

---

180 – نفسه : 26 .

181 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 149، 150 .

سادسا : ارتباطها بشخصيات معروفة من علية القوم ( أنبياء، وعلماء، وأمراء ).
سابعا : تعدد الشخصيات فيها؛ ما جعلها( الأخبار ) تقوم على عنصر الحوار.

## 1-4 : تحقيق اللذة والمتعة الجنسية :

من ذلك أخبار الجواري في قصور الأمراء.

مثل ماحكاه المسعودي في " شرح المقامات " قال : أخبرنا الفقيه أبو العز أحمد بن عبد الله العكبري في كتابه بسنده عن أيوب الوزان قال : قال الفضل : " دخلت على الرشيد وبين يديه طبق فيه ورد وعنده جارية مليحة أديبة شاعرة قد أُهديت إليه، فقال : يا فضل قُل في هذا الورد شيئا يُشبهُه فقُلتُ :

كَأَنَّـهُ خَـدُّ مَرْمُـوقٍ يُقَبِّلُـهُ فَمُ الْحَبِيـبِ وَقَدْ أَبْدَى بِـهِ خَجَـلاً فقالت الجارية : كَأَنَّـهُ لَوْنُ خَدِّي حِينَ تَدْفَعُنِي كَفُّ الرَّشِيد لِأَمْرٍ يُوجِبُ الْغُسْلاَ فقال الرشيد: قم يا فضل فإن هذه الماجنة قد هيجتنا، فقمت وأرخيت الستور دوني عاجلا "[182].

ويقوم هذا النوع من الأخبار أساسا على ثنائية ( رجل / امرأة ).

فالرجل إما أمير أو وزير، وهو على قوة سلطانه، واتساع نفوذه يظهر ضعيفا أمام فتنة النساء ؛ حيث يبذل كل نفيس في سبيل تحقيق المتعة، واللذة.

والمرأة هي تلك الجارية الحسناء، الفاتنة الجمال، الأديبة، والشاعرة، والمُغنية التي تُطربُ الأسماع، وتأسرُ القُلُوب بصوتها، فهي متعة المجلس ولذَّته.

**2- الحكايــات :** وتشكل أحد أهم الأنواع الخبرية، وتحيل عليها جملة الصيغ التالية : حكى فلان، وحكي عن، وحكي أن، وماحكاه، ومثل هذه الحكاية، وروى فلان، ومن غريب ما يُحكى، ورُوي عنه، وحكى بعضهم، ورُويَ عن... وغيرها.

وبلغ عدد حكايات السكر دان سبعٍ وعشرين ومائة (127) حكاية.

**1-2 : أنواع الحكايات :** يمكن تقسيم الحكايات بحسب مضمونها إلى سبعة أنواع.

182 - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 218 .

نبرزها في الجدول كما يلي :

| النِّسبــة | العدد | نوع الحكايــات | الرقــم |
|---|---|---|---|
| % 30,70 | 39 | الملـوك والأمـراء | 01 |
| % 18,89 | 24 | العلمـاء والصالحين | 02 |
| % 14,16 | 19 | الطيـور والحيوانات | 03 |
| % 12,59 | 16 | الأدبـاء والشعـراء | 04 |
| % 12,59 | 16 | متنوعـــة | 05 |
| % 5,51 | 07 | الجــواري | 06 |
| % 4,72 | 06 | العـــوام | 07 |
| % 100 | 127 | **المجمـــــــوع** | |

نلمـح فـي الجـدول أعـلاه أن حكايـات الملوك والأمـراء تتقدم بقيـة الأنـواع، لتشكل بـذلك مانسبته (39,70 % ) من مجموع الحكايـات، وهـو مـا ينم عن احتفـاء الكاتـب بهذه الطبقـة من المجتمـع، وهـو ما أشار إليه في المقدمـة بقولـه : "... فهو تـأليف ظريف وحضـرة تصلـح للمقام الشريف... "[183].

ومن نماذج هذه الحكايات قوله :

" حُكيَ أن هارون الرشيد حلف في وقت أنه من أهل الجنة فاستفتى العُلماء فلم يُفته أحد أنـه من أهلها فقيل لـه عن ابن السمَّاك القاص الكُوفي فاستحضره وسأله، فقال : هل قدر مولانـا على معصية فتركها خوفا من الله تعالى ؟ فقال : نعم، كان لبعض ألزامي جارية فهَويتُها وأنـا إذ ذاك شاب، ثم إنـي ظفرت بها مرة وعزمت على ارتكاب الفاحشـة معها ثم إنـي فكّرت فـي النار وهولها وأن الزِّنا من الكبائر، فأشفقت من ذلك وكففت عن الجارية مخافة من الله تعالـى : فقال له ابن السَّمَّاك : أبشر يا أمير المؤمنين فإنك من أهل الجنـة فقال هارون الرشيد :

183 - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 5 .

ومن أين لك هذا ؟ فقال : من قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [ النازعات : 40،41 ] فسُرَّ هارون بذلك "[184].

وتأتي بعد هذا النوع حكايات العلماء والصالحين بنسبة (18,89 %)، مثل حكاية الشرشيني في ( شرح المقامات ) " أنه كان رجل بالبصْرة يعرف دواء لظُلمة البصر فينتفع به الناس فمات فأضر ذلك بمن كان يستعمله، فذكر ذلك للخليل بن أحمد فقال : أله نُسخة ؟ قالوا : له نسخة لم نجدها، فقال : فهل له من آنية يعمله فيها ؟ قالوا : نعم له آنية يجمع فيها أخلاطا، قال : فأتوني بها، فأحضروها له فجعل يشمُّها ويُخرج نوعاً نوعاً حتى ذكر خمسة عشر نوعاً، ثم سأل عن جمعها وتقاد يرها فعرفه من كان يُعالج مثله، فعلمه وأعطاه للناس فانتفعوا به مثل تلك المنفعة، ثم وُجدت النُسخة في
كتاب الرجل فيها ستة عشر نوعاً لم يُهمل منها إلاَّ خلطا واحداً "[185].

ويلي ذلك في الترتيب حكايات الطيور والحيوانات التي تمثل ما نسبته (14,96 %) إلى مجموع الحكايات البالغ سبعٍ وعشرين ومائة (127) حكاية.

ومن ذلك ما رُويَ عن الشعبي أنه قال : " خرج أسد وذئب وثعلب يتصيَّدون فاصطادوا حمار وحش وغزالا وأرنبا فقال الأسد للذِّئب : اقسم، فقال : حمار الوحش للملك، والغزال لي، والأرنب للثعلب، قال : فرفع الأسد يده وضرب رأس الذِّئب ضربة فإذا هو مجندل بين يديه، ثم قال للثعلب : اقسِم بيننا فقال : حمار يتغذى به الملك والغزال يتعشى به، والأرنب بين ذلك، فقال الأسد : ويْحك ما أقضاك من الذي علَّمك هذا القضاء ؟ فقال : القضاء الذي نزل برأس الذئب "[186].

## 2-2 : بناء الحكايات :

إن البحث في مكونات الحكايات التي تشكل هيكلها العام يحيلنا على مجموعة من العناصر الثابتة، والمتكررة في جُل هذه الحكايات، وهي :

---

[184] – نفسه : 105 .

[185] – نفسه : 84 .

[186] - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 132 .

**2-2-1 : الصيغة الافتتاحية :** وهي الكلمات الأولى التي افتتح بها حكاياته، وتؤشر عليها جملة الصيغ التالية : حكى فلان في كتابه كذا، وحكى بعضهم، وحُكيَ أن، من غريب ما يُحكى، وقريب من هذا ماحكاه، ومثل هذه الحكاية... وغيرها.

**2-2-2 : السند :** ويمثل سلسلة الرُّواة، ونقلة الخبر أو الحكاية، وتعبر عنه صيغ من قبيل : قال فلان عن فلان، وأخبرنا فلان أن، وثبت في كذا عن فلان أنه قال، وأورد فلان في كذا عن فلان قوله، وروى فلان عن فلان أنه، وأخبرنا فلان قال وأخبرني فلان أنه أخبره فلان، وحكى فلان عن فلان أنه قال، وحكى فلان قال : أخبرنا فلان عن فلان قال : قال فلان : قال فلان... وغيرها.

الحكاية و**2-2-3 : المرجع :** ويمثل الوثيقة المرجعية الأساسية أوالمصدرية للخبر المنقولة، وتُحيل عليه صيغ مثل : قال فلان في كتاب كذا، وذكر فلان في كتابه كذا، و قرأت في كتاب كذا، ورأى فلان في المنام، ورأيت في بعض المجاميع الأدبية، وقال فلان في تفسيره، وثبت في صحيح فلان، قلت في رسالتي... وغيرها.

وبذلك نلحظ أن المرجع غالبا ما يكون الكتاب الذي نُقل عنه الخبر أو الحكاية.

**2-2-4 : نص الحكاية :** بعد القراءة المتأنية في نصوص هذه الحكايات وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين :

**أولا :** حكايات تقوم على حدث واحد، تساهم فيها شخصيتين أو ثلاث على الأكثر، وهذه الحكايات هي الأبرز إذ بلغ عددها حكايتين ومائة (102) حكاية؛ بنسبة أكثر من(80%) .

**ثانيا :** حكايات تقوم على أكثر من حدث، وتشارك فيها مجموعة شخصيات، وقد وردت في عشرين وخمس (25) حكايات؛ بنسبة (20%) تقريبا.

ولفت انتباهنا ملمحين بارزين على مستوى أخبار، وحكايات السكردان :

**الأول :** كونهما " يرتكزان بشكل خاص حول أحداث معينة " [187] ؛ فالحدث بمثابة المقوِّم الأساسي في كل خبر أو حكاية.

**والثاني :** أن أغلب هذه الأخبار، والحكايات (70 %) منها تتسم بالغرابة، والعجب، بل يمكن إدراجها ضمن الخوارق.

---

187 - ينظر : سعيد يقطين : المرجع السابق، 105.

وهذا ما يكشفه لنا المحتوى أو الصيغ الأدائية التي قُدمت أو خُتمت بها هذه الأخبار والحكايات، من قبيل : من غريب الاتفاق، ومن عجيب مارأيته، ومن غريب ما سمعته ومن غريب ما يحكى، ومن غريب الاتفاق العجيب، وهذا من العجائب التي لم يُسمع بها ولا بأغرب منها، وهذا من العجائب، وهذا من أغرب ما يكون... وغيرها.

ولعل هذا الاختيار يأتي استجابة لما تطلبه مجالس الملوك، والسلاطين من عادات باعتبارها " فضاءات جماعية متميزة، لها زمانها، وشخصياتها، وعوالمها الخاصة التي تحدد طبيعة الكلام والمتكلمين فيها " [188].

كما أن الكاتب بطبعه حريص على هذا النوع من التآليف التي تجمع نوادر الأخبار وعجائب القصص والحكايات.

**3- القصص** : قبل الحديث عن طريقة تقديم الكاتب لقصصه يواجهنا سؤال أساسي لا يمكن تجاوزه، وهو دافع اختيار قصص بعينها.

فما دافع اختيار ابن أبي حجلة لقصتي يوسف وموسى عليهما السلام دون غيرها من سائر قصص الأنبياء ؟ هل من خصوصية تميِّز القصتين ؟

نتصور أن ما يقف وراء اختيار هاتين القصتين لا يخرج عن ثلاثة دوافع، وهي :

**أولا** : جريان العدد سبعة في كلتيهما بشكل ملفت للانتباه.

**ثانيا** : وقوع جلّ أحداث القصَّتين في مصر أرض العزَّة والتمكين حسب رُؤية الكاتب.

**ثالثا** : اشتمال كل منهما على الكثير من المعجزات، وخوارق العادات.

مع توفر قصة يوسف عليه السلام على خصوصية إضافية، يبرزها الكاتب بقوله: " نظرت في سبعة تفاسير قبل الحديث عن هذه القصة التي هي قصة يوسف عليه السلام فوجدت أنها كما أخبر الله تعالى أحسن القصص.

ويُضيف مُعللا ذلك : إنما كانت أحسن القصص لاشتمالها على ذكر المُحب والمحبوب وسيرتهما، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين وسير الملوك والسلاطين والعُلماء والملائكة والشياطين والتُّجَّار والرِّجال والنِّساء وذكر مكرِهِنَّ وحِيَلِهِن.

---

188 – نفسه : 213.

وفيها ذكر التوحيد والفقه والسِّير وتعبير الرُّؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعايش وجُلّ الفوائد التي تصلح للدنيا والآخرة وغير ذلك "[189].

ولأجل هذا وجدنا الكاتب قد اختار هاتين القصتين من جميع القصص الأخرى.

فكيف قدَّمهما ؟

نلمس أن في كلتا القصتين ثلاثة عناصر ثابتة، تشكل في " علاقاتها المنتظمة إيقاعا قصصيا موحَّدا يضمن لكُلٍّ منها التواصل، وهي :

**أولا** : الشخصيات من حيث تشكل عالميها الداخلي والخارجي وفق حركة الفعل.

**ثانيا** : الأحداث من حيث وقوعها وتشكيلها وتنظيمها في نسق معيَّن مع البناء الفني.

**ثالثا** : المكان والزمان من حيث توظيفهما لرصد حركة الشخصيات عبر الأمكنة بشكل ينسجم مع البناء الفني والعالم الفكري "[190].

ويظهر من خلال طريقة تقديم الكاتب للقصتين الأثر الكبير الذي تلعبه الشخصيات في حركة الأحداث، وثباتها، ونعني بالشخصيات هنا الأنبياء ( يوسف وموسى عليهما السلام ) على وجه الخصوص.

ولهذه الأهمية التي تحظى بها الشخصية وجدنا الكاتب يستهل حديثة أو روايته لقصة يوسف عليه السلام بقوله : " فمن أول قصة يوسف عليه السلام ما رواه وهب رضي الله عنه أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن أحد عشر غصنا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا بغصن وثب عليها حتى اقتلعها وغلبها فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك "[191].

ويضيف لإزالة اللبس والإبهام الذي تثيره الرُّؤيا السَّالفة :

"... ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له، فقصها على أبيه فقال : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [ يوسف:5 ] أي يحتالون على هلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك "[192].

---

189 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 107 .

190 – إبراهيم جنداري جمعة : الإيقاع في القصة القرآنية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 379 ، 1423 هـ – 2002 م .

191– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 107 .

192 – نفسه : 108 .

ونلمس بذلك أن شخصية يوسف عليه السلام . لوزنها في القصة . تتكرر في كل من الروايتين السالفتين أكثر من سبع مرات، وهو ما ينمُّ عن أهميتها، ودورها المحوري في دفع حركة الأحداث.

ويقول في مطلع روايته لقصة موسى عليه السلام مع فرعون : " أقول : قد تقدم في المقدمة أن آخر مناجاة موسى عليه السلام يارب أوصني فقال : أوصيك بأمِّك قاله سبع مرات، ولما استأجر شعيب موسى عليه السلام لرعي الغنم قال له : ادخل هذا البيت لبيت عنده فيه عصي الأنبياء عليهم السلام، فخذ منها عصا تطرد بها السباع عن غنمك وكان ليلا، فدخل فأخذ عصا كان قد هبط بها آدم عليه السلام من الجنة وتوارثها الأنبياء عليهم السلام حتى وصلت لشعيب عليه السلام فقال لموسى : رُدها وخُذ غيرها فما وقع في يده غيرها سبع مرات فعلم أن لها شأناً "[193].

وتتكرر الظاهرة نفسها التي لمسنا بروزها في قصة يوسف عليه السلام مع قصة موسى عليه السلام ؛ فالشخصية . كما لاحظنا في هذا المقطع . لها حضورها المميَّز الذي يجعلها تُهيمن على الحدث ؛ إذ تظهر تصريحا تارة، وتلميحا تارة أخرى، فكلمة موسى عليه السلام لوحدها ترد أربع(04) مرات في هذا المقطع، وفي شكل ضمير بارز ترد أكثر من ست (06) مرات، وفي شكل ضمير مستتر أكثر من سبع (07) مرات. كما يلفت النظر أمر آخر في مطلع القصتين، وهو الحدث الخارق الذي تصدّرهما والمتمثل في :

حدث الرؤيا في قصة يوسف، وحدث العصا في قصة موسى عليهما السلام.

وهذان الحدثان في بُعدهما الخارق . على الأقل . يحملان دلالات واسعة منها :

**أولا** : دلالة على نبوة الرجلين ( يوسف وموسى عليهما السلام ).

وبالتالي فكل حدث من الحدثين السابقين هو في حقيقته معجزة لكونه حدثا خارقا للعادة من جهة، ولاقترانه بدعوى النبوة من جهة ثانية.

**ثانيا** : تميُّز الشخصيتين بإضفاء هالة من القداسة والرمزية عليهما.

**ثالثا** : المثالية التي تتصف بها كل شخصية ( في كاملة الأوصاف ) يتبعها الحظ والتفوق حيثما حلَّت، وأينما ارتحلت ؛ لأن لها تأييدا خارجيا ( ما ورائيا ) تمثله العناية الإلهية.

---

[193] – نفسه : 134 .

فيوسف عليه السلام رأى رؤيا وهو ابن سبع سنين أو اثنتي عشرة سنة والرؤيا أمر لا إرادي ألهمه الله تعبيره ( تفسيره ).

وموسى عليه السلام اختارته العصا (عصا الأنبياء) ولم يخترها؛ فلم يقع غيرها في يده سبع مرات.

وهذه الدلالات المتعلقة بالشخصيات أساسا كان القصد منها وضعها في دائرة الضوء وشد انتباه القارئ نحوها، فالحدث الأهم حيث تكون، وحركة القصة وسيرورتها مرتبطة بحركة تلك الشخصيات.

ونميِّز في حركة الشخصية بين نوعين :

**أولا** : " حركة خارجية مادية، والمتمثلة في الانتقال المكاني.

**ثانيا** : حركة داخلية، وتشمل تحركات الخواطر والأفكار والعواطف التي لا تكاد تُحس، ولكنها في الواقع أكثر فاعلية وأقوى تأثيرا في إنضاج الأحداث ".

ونظرا لتميُّز قصتي يوسف وموسى عليهما السلام بعنصر الحركة والانتقال من حال إلى حال، وتنوعهما بين الحِلِّ والتِّرحال، آثرنا رصد حركة الشخصية مفردة أو جماعية عبر الأمكنة المتعددة في كلتا القصتين.

## أ/ – حركة الشخصية المفردة في المكان :

" ويُقصد بالشخصية المفردة إنسان واحد يُمثل نفسه "[194].

والشخصية المُفردة في القصتين السابقتين تمثلها شخصيتي يوسف وموسى عليهما السلام.

وبالعودة إلى قصة يوسف عليه السلام نلمس أن الحركة والتنقل يشكلان ملمحا بارزاً فيها ؛ حيث " انتقل يوسف عليه السلام على مدار القصة من مكان لآخر، فشكلت حركته إيقاعا قصصيا " [195]، فقضى جزءا من طفولته في كنف عائلته مع أبيه وإخوته، وفترة في الجُب الذي رُميَ فيه، ثم في بيت عزيز مصر إلى أن صار شابا وحدث له ما حدث له من قصة المراودة مع امرأة لعزيز، فقضى شطرا من شبابه السجن الذي اختاره على

[194] – إبراهيم جنداري جمعة : المرجع السابق .

[195] – نفسه .

الفحشاء إلى أن حضره صاحب السجن ليستفتيه في رُؤيا الملِك التي عجز المفسِّرون عن إيجاد جواب لها، وكان ذلك سبب خلاصه من السجن، وتولِّيه ملك مصر، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْض ﴾ [ يوسف : 56 ]، أي أرض مصر التي قضى فيها مُدة من الزمن، إلى أن صار كهلا واجتمع شمله بأهله، فرفع أبويه على العرش وخَرُّوا له سُجَّدا.

ونستطيع إيجاز حركة يوسف عليه السلام في رحلته الطويلة عبر الأمكنة المتعددة في المحطات السبع التالية :

يوسف عليه السلام مع أهله ← في الجُب ← في بيت العزيز ← في السجن ← في قصر الملك ← أرض التمكين ← العرش.

بينما ينتقل موسى عليه السلام من حضن أمه كمحطة أولى صغيرا في التابوت عبر اليمِّ إلى أن يصل إلى قصر فرعون، فيقضي فيه وقتا يسيرا قبل أن يعود من جديد إلى حضن أمه في رحلة بحثه عن ثدي مُرضعة يقبله، لينتقل إلى قدره المعلوم قصر فرعون أين يشب ويترعرع، ويبلغ أشُده فيخرج إلى المدينة فيقتل القبطي وهو الحدث الذي عجّل في خروجه من المدينة خائفا يترقَّب تلقاء أرض مدين، فكان ذلك استدراجا له إلى جانب الطور، شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة حيث أوحى الله له، ليعود مرة أخرى إلى قصر فرعون لدعوته إلى دين الله، وينتقل إلى لقاء السَّحَرَة لإثبات صِحَّة نبوَّته، ثم يخرج مع قومه، ويتبعه فرعون وجنوده فيدركه قُرب اليمِّ، أين ينجُ موسى وقومه من بني إسرائيل، ويغرق فرعون وزبانيته في اليمِّ.

ونلخص حركة شخصية موسى عليه السلام عبر كل هذه الأمكنة على النحو التالي :

موسى عليه السلام مع أُمه ← في التابوت ← في اليمِّ ← في قصر فرعون ← عند أمه ← في قصر فرعون ← في المدينة ← في جانب الطور ← في شاطئ الوادي الأيمن قرب البقعة المباركة ← في قصر فرعون ← في لقاء السحرة ← قرب اليم ← خارج اليم.

## ب/ – حركة الشخصية الجماعية :

" والمقصود بالشخصية الجماعية مجموعة بشرية تُمثل شخصية واحدة في التصرفات والسُّلوك "[196].

وقد جاءت حركة الشخصية الجماعية في قصة يوسف عليه السلام، والمتمثِّلة في إخوته موازية لحركة الشخصية المفردة، وتابعة لها في أغلب الأحيان لارتباطها بها.

ويمكن رصد هذه الحركة الشخصية الجماعية في الأمكنة كما يلي :

إخوة يوسف عليه السلام في البيت ← قرب الجُب ← البيت ← البادية ← مصر ← البادية ← مصر ← البادية ← مصر ← البادية ← مصر.

ونلاحظ أن الحركة الجماعية لإخوة يوسف عليه السلام كانت سلبية غرضها تعطيل حركة الشخصية المُفردة؛ لذلك وجدنا يعقوب عليه السلام . لعلمه بتأويل الرُّؤيا . يحذِّر ابنه من بداية القصة من ذكرها لإخوته. فقال :﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [ يوسف : 5 ]؛ ومعنى ذلك " يحتالون على هلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك "[197].

وكان يعقوب عليه السلام يُؤثر يوسف بزيادة المحبَّة والشفقة عليه؛ لما كان يرى فيه من النَّجابة، وكان إخوته يحسدونه على ذلك.

فلما بلغهم حدث الرؤيا تزايد حسدهم له حتى قالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [ يوسف : 8 ].

وكان هذا أحد الدوافع القوية التي جعلتهم يُخططون إلى التخلُّص منه، وذلك معنى قوله تعالى على لسان أحدهم : ﴿ اُقْتُلُوا يُوسَفَ أَو اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِه قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [ يوسف : 9 ].

وتمثل هذه الحادثة الخطوة الأولى في حركة الشخصية الجماعية المناهضة لحركة الشخصية المُفردة؛ والتي هدفها الأساسي إبطال حركة يوسف عليه السلام، وتعطيلها.

بيد أن حركة الشخصية الجماعية هي التي تتعطل بعد حادثة الجُب، ورحلة العودة إلى البيت؛ حيث تنقطع أخبار إخوة يوسف عليه السلام بالكلية، ولا يظهر لهم أثر في أكثر مراحل ومحطات الشخصية المُفردة حرجاً، إلى أن يقوموا برحلاتهم الأربع إلى أرض مصر،

---

196 – إبراهيم جنداري جمعة : المرجع السابق .

197 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق،108 .

حيث كانت الشخصية المُفردة هي المُحرّك لها (الرحلات) ليُقيموا فيها نهائيا بعد أن ضمن لهم يوسف عليه السلام الأمن والاستقرار.

وساهم بذلك " الإيقاع القصصي في تحديد عالم الشخصيات المفردة والجماعية سواء الداخلي منها أو الخارجي؛ عبر مواقفها الظاهرية فضلا عن دواخلها"[198]. ونظرا لارتباط الحركة بالإيقاع غالبا واعتماد"القصة القُرآنية هذا النوع من الإيقاع الصوتي كمُكوّن أساسي في سردها، وفي تقديم حواراتها من خلال العلاقة الإيقاعية بين الكلمات والجمل في المشاهد والفصول "[199]. ارتأينا بحث هذا الجانب في قصتي يوسف وموسى عليهما السلام على مستوى إيقاع التكرار بالحروف، والكلمات، والجُمَل.

" إن التكرار تناوب بالألفاظ وإعادتها في سياق التعبير؛ بحيث تشكل نغما موسيقيا ويشمل التكرار كل وحدة لغوية مهما كانت إذ يشمل الأجزاء الصّغرى (الحُروف) والحركات، أو الأجزاء الكُبرى ( الكلمات والتراكيب ).

كما يرتبط التكرار بالإيقاع إذ أن الإيقاع يحتمل بنية تكرارية "[200].

## أ/- تكرار الحروف :

ومن تكرار الحروف حرف ( الواو ) في قصة يوسف عليه السلام، قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الاَبْوَابْ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكْ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايْ إِنَّهُ لاَ يُفلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ [ يوسف : 23-24 ].

والتكرار بحرف الواو في الآية السالفة جاء عطف الأفعال : راودته، وغلّقت، وقالت، وهمَّت، وهمَّ ).

وهو أسلوب تصوير عجيب يحاكي بدقة متناهية مشهد المراودة بأفعال متتابعة لا فاصل بينها.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ اِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتِ اِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾

---

[198] – إبراهيم جنداري جمعة : المرجع السابق .

[199] – إبراهيم جنداري جمعة : المرجع السابق .

[200] – نفسه .

[ يوسف : 65 ]. حيث جاء التكرار أيضا بحرف الواو لعطف الأفعال ( نمير، ونحفظ، ونزداد ) " وهو أسلوب إغراء عجيب من قبل إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم وهذا ما يزاوج بين هذه المتعاطفات أو يوافي بينها بحيث تبدو مجتمعة وهي متفرقة لما في حرف الروي من رفادة ولين حتى تصبح هذه المتعاطفات على هذا النَّسق كيانا واحدا ومطلبا واحدا لا يمكن الفصل بين أجزائه "[201].

وحرف الفاء في قصة موسى عليه السلام. كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَافِكُوَن فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الشعراء : 43- 47 ].

نلاحظ أن الفاء جاءت في هذه الآيات عاطفة للأفعال : ألقُوا، وأَلْقَى، وأُلْقِيَ. وفي تكرارها أربع مرات . إضافة إلى الترتيب والتعقيب بين الأفعال المتتالية . وظيفة جمالية، تتمثل في الإيقاع الصوتي المتكرر.

وهو ما نلمسه أيضا في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اِضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخِرِينَ ﴾ [ الشعراء : 63، 64 ]. حيث تتوالى الأفعال : أوحينا، وانفلق، وكان. دون مُهلةٍ لتثبت سُرعة الحدث، وقُرب مأساة فرعون وأتباعه، ونجاة موسى وقومه من بني إسرائيل.

## ب/- تكرار الكلمات :

ومعلوم أن " تكرار الكلمات أسماءً وأفعالا يُحقق إيقاعا يُساير المعنى ويُجسِّمه ويُعبِّر عن معانيه "[202].

ومن نماذج هذا التكرار في قصة يوسف عليه السلام تكرار كلمة (يوسف) في جملة المقاطع التالية : قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أبَانَا لَفي ضَلاَل مُبينٍ اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ

---

[201] – إبراهيم جنداري جمعة : المرجع السابق .

[202] – نفسه .

وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَامَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [ يوسف : 7 – 11 ].

وقد تكررت كلمة يوسف لوحدها في هذا المقطع خمس مرات ؛ بمعدل مرة في كل آية، وهو ما خلق نغما موسيقيا متميزا يُنمُّ عن أثر هذه الكلمة تحديدا تعبيريا ودلاليا.

ويتجلى تكرار الكلمات في قصة موسى عليه السلام في كلمة ( موسى ). قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَّا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنَ اَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ [ القصص : 30 – 31 ].

ففي هذا المقطع تتكرر كلمة ( موسى ) مرَّتين؛ بمعدل مرة في كل آية مسبوقة بحرف النداء ( يا )، وأيُّ نداء نداءُ ربّ العِزَّة، ولهذا كبير الأثر في تميُّزها في تركيب الآيتين كبنية جمالية ودلالية في آن.

## ج/- تكرار الجمل :

يتمثل هذا النوع من تكرار التراكيب اللغوية في وحدات لغوية أكبر من حيث من الكلمة "prolongement.[203]" (الامتداد العرضي)

ومن أمثلته تكرار الجُمل المُعبِّرة عن شخصيتي يوسف عليه السلام وامرأة العزيز في حديث المُراودة.

( واستبقا الباب )، و( وألفيا سيدها لدى الباب )، و( قدَّت قميصه من دبر )، و( إن كان قميصه قُد من قُبُل )، و( إن كان قميصه قُد من دُبُر )، و( فلما رأى قميصه قُد من دُبُر )، و(صَدَقْتِ وهو من الكاذبين )، ( وكَذَبْتِ وهو من الصادقين )،( وإنه من كيدِكُن )، و( إن كيدَكُنَّ عظيم )، و( وما جزاء من أراد بأهلك سوءاً )،( وشهد شاهد من أهلها ).

## 4- السيرة :

أورد ابن أبي حجلة مجموعة من السير المختصرة، بلغ عددها إحدى عشرة سيرة لأفراد عائلة السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون.

---

[203] – ينظر : عبد الرحمن تبرماسين : البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع،القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2003 م، 219 .

فكيف قدّم الكاتب هذه السِّير ؟ وما هي أهم العناصر الثابتة التي تشكل هيكلها العام ؟ بعد استقرائنا لجملة هذه السِّير الإحدى عشر وجدنا أن جُلَّها يتوفر على سبعة عناصر، تمثِّل أهم مكوناتها، وهي :

4-1 : **لقب السَّلطنة** : ويأتي كفاتحة لكل سيرة، لإبراز أهمية الشخصية المُترجم لها، و تميّزها، وشدّ الانتباه إليها.

ويتكوَّن هذا اللقب عادة من مُفردتي : السُّلطان، والملك.

**4-2 : الإسم الشخصي** : ونقصد به الإسم العاري من النَّسَب، الذي لا يشترك فيه اثنان مثل : المنصور قلاوون، والناصر محمَّد، والأشرف خليل... وغيرها.

**4-3 : ظروف تَوَلِّيهِ السُّلطة** : وهي أهم الأحداث التي كانت سببا مُباشرا في جلوس السلطان على سرير المُلك، وهي لا تخرج في الغالب على ثلاثة أسباب :

فالسلطان إما أن يأتي عن طريق انقلاب عسكري ( بالقوة ) أُعدَّ له سلفا، كما هو حال " السلطان الملك المنصور قلاوون الذي تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش بن الملك الظاهر "[204].

وإما بوصية " فالملك المنصور أبو بكر رحمه الله تعالى، كان أبوه الملك الناصر قد نص عليه، وأسند الوصية بالمُلك إليه، وذلك بحضرة قوصون، وبشتك، وجماعة من الأمراء الأتراك "[205].

أو بطريق المشورة والاتفاق مثلما حصل مع السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل الذي "... اتفقت عليه الآراء بعد خلع أخيه الناصر، وحلفت له العساكر، ودقت له البشائر "[206].

والملاحظ على هذه الأخبار التي وصف فيها الكاتب طرق وكيفيات الوصول إلى الحكم عند سلاطين المماليك أنها قد وردت بصياغة مختصرة لا إطناب فيها.

---

[204] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 54 .

[205] – نفسه : 61 .

[206] – نفسه : 64 .

**4-4 : مناقبه :** ونقصد بها مجموعة النعوت، والصفات، وجُل الفضائل ومكارم الأخلاق، التي وسمت صاحب السيرة، أو أُلصقت به، من قبيل : عليّ الهمَّة و حسن النِّعمة، وكان ليثا هُماما وبطلا ضرغاما، وكان ملِكا مهابا وجوادا وهَّابا، وهو ليثُهم الغالب وشهابهُم الثاقب، وكان من أجود الإخوة، وأكبرهم مروءة ونخوة، على شكله طلاوة وفيه خير وتلاوة، وحسن الذَّات، سعيد الحركات، له تهجُّد وصيام، ومحبة في النبي عليه أفضل الصلاة والسلام...

ولعل ما يمكن تسجيله على ما يندرج تحت عنصر المناقب هو المبالغة الشديدة في وصف سير الكثير منهم ( السلاطين ) بأحسن الأوصاف والنُّعوت، وتنزيه معظمهم عن النقص.

**4-5 : أهم إنجازاته :** ونعني بها تلك الأعمال التي خلَّدت ذكر هذا السلطان أو ذاك، وبقيت شاهدة على فترة حكمه. مثل : تشييد المدارس، والمشافي ( البيماريستانات ) والمساجد، والجوامع، وفتح المدن والممالك...

من ذلك ما جاء في سيرة السلطان الملك المنصور قلاوون الذي "... أكثر من الفتح والفتوحات، فكسر التتار سنة ثمانين، وترك الفرنجة من جيشه في حلقة التسعين، وله في القاهرة الأوقاف المبرورة، والمدرسة المشهورة، والبيمارستان الذي هو من حسنات الزمان"[207].

**4-6 : ما قيل فيه من منظوم ومنثور :** وقد وردت معظم النصوص الشعرية من قصائد ومقطوعات في هذا الباب باب السير.

يقول في السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون[208] :

غَدَا سُلْطَانُنَا مَلِكَ الْبَرَايَا        رَعَاهُ اللهُ يَعْدِلُ فِي الرَّعَايَا
حَوَاصِلُ عَدْلِ وَالِدِهِ حَوَاهَا        فَأَخْرَجَ مِنْ زَوَايَاهَا الْخَبَايَا

[207] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 54 .
[208] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق، 71 .

فَمَهْلاً فِي التَّمَادِي فِي الْأَيَادِي فَقَدْ حُزْتَ النِّهَايَةَ فِي الْعَطَايَا
وَوَجْهُكَ حَازَ كُلَّ الْحُسْنِ طُرّاً فَهَلْ خَلَّفْتَ خَلْفَكَ مِنْ بَقَايَا

ومن ذلك أيضا ما ذكره القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يصف فضل السلطان الملك الصالح علي، يقول : " ما رأيت ولا سمعت بأسبق من ذهنه إلى الفهم، ولا أَدْركَ منه لما يُزيلُ الوهم، ولقد كتبت عنه واستكتبت فما عَلِمَ مكتوبا قط إلا وقرأه جميعه، وفهم أُصوله المكتوبة وفروعه لا بل واستدرك عليَّ وعلى الكتاب، وخرَّج أشياء كثيرة معه فيها الصواب، وذلك بحُسن تعطُّفٍ وتلطُّفٍ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "[209].

ولا يخرج عن هذا الإطار كل ما قيل في آثار هذا السلطان أو ذاك من معجزات تاريخية وحضارية، ووزرائه، وقادة جيوشه من منظوم القول ومنثوره.

يقول الكاتب في تعداده لمنجزات السلطان الملك الأشرف خليل :

" وإليه تنسب الأشرفية التي بقلعة الجبل المحروسة التي هي الآن كنانة الله في أرضه، و معقل سُنة العدل وفرضه، والسِّرُّ في السُّكان لا في المنزل قد أصبحت وعلى وجوه خدامها للحُسن أشراط، ولآذان شرا فاتها بين النجوم أقراط، فالزهر أزهارها، وجداول نهر المجرَّة أنهارها، والبروج قصورها وهالة القمر بسورها، والسُّعود أخبيتها وفريقها، وسُهيل إلى طريق الأرزاق طريقها وحاجب الشمس أميرها... "[210].

ويقول في هذه المدرسة [211] :

وَمدْرَسَةٍ لِلْعِلمِ فِيهَا مَوَاطِنُ فَشِيخُو بِهَا فَرْدٌ وَإِيتَارُهُ جَمْعُ
لَئِنْ بَاتَ فِيهَا لِلْقُلُوبِ مَهَابَةٌ فَوَاقِفُهَا لَيْثٌ وَأَشْيَاخُهُ سَبْعُ

ويورد في المُقر السَّيفي [212] أحد أمراء جيش السلطان الملك الناصر أحمد قوله [213] :

أَمِيرٌ مُحْكَمُ التَّدْبِيرِ طِبٌّ مَلِيٌّ بِالطَّعَامِ وَ الطِّعَانِ

[209] – نفسه : 57 .

[210] – نفسه : نفسها .

[211] – نفسه : 58 .

[212] – هو الوزير منجك اليوسفي تنقل في خدمة الناصر حتى رُتِّب سلاح دار (رتبة عالية في الجيش) ولي حلب سنة 759 ومات سنة 776 هـ ( ينظر في تعريفه : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، 4، 360 ).

[213] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 54 .

خَبِيرٌ بِاللُّغاتِ وَمِنْ عُرَاهَا        سَلِيلُ التُّرْكِ يُعْرَفُ بِاللِّسانِ
أَتَابِكُ عَسْكَرِ الأُمَرَاءِ يَبْدُو        لَنَا أُنْبُوبُهُ قَبْلَ السِّنَانِ

ويقول في الخا نقاه التي أنشأها المُقرّ السَّيفي وزير الديار المصرية :
" فيالها من خانقاه تشرق قناديله في كل زاوية ويعجز عن وصف صهريجها صريع الدِّلاء وحمّاد الرَّاوية، فكم فيها للصُّفية من خُلوة وكم لعَروس منارها من حُلوة "[214].

**4-7 : الدعـاء :** وقد ختم به الكاتب العديد من السِّير، ومن صيغ الدُّعاء التي أوردها ما جاء في سيرة السلطان الملك الأشرف خليل.

يقول الكاتب في نهايتها : "... فالله تعالى يُشَيِّدُ أركانه، ويُؤَيِّدُ سُلْطَانَهُ، ويَبْسُطُ ظِلَّهُ الظَّليل، ويكافئه من حوض السبيل بالسلسبيل، ليصبح بأجر الظمآن بأمان، ويدخل الجنة مع الصائمين من باب يُقال له الرَّيَّان "[215].

وقوله في تتمة عرضه لطرف من سيرة السلطان الأعظم الملك الناصر محمد :

"... فالله تعالى يُضاعف للواقف والقاعد بها الحسنات، ويرفع لباني منارها الدرجات، ويُكثر به في أُمة صاحب الكوثر، ويُقرُّ عيْنه بالصِّهريج يوم العطش الأكبر "[216].

وما يلفت النظر في الدُّعاء على مستوى جُلّ هذه السِّير هو كثرة توظيف الفعل المضارع المفتوح على المستقبل.

وهو ما نلمسه في الأفعال : يُشَيِّدُ، ويُؤَيِّدُ، ويَبْسُطُ، ويُكَافِئُ، ويَدْخُل، ويُكْثِرُ، ويَرْفَعُ، ويُضَاعِفُ، ويُقِرُّ... وغيرها.

فما دلالة هذا التوظيف ؟

---

[214] – نفسه : 60 .

[215] – نفسه : 58 .

[216] – نفسه : 60 .

لعلَّنا نفترض أن في هذا التوظيف الكثيف للأفعال المضارعة رغبة الكاتب في دوام ملك أولئك السلاطين المتميِّزين، وحُبّاً صادقا لهم لحسن سِيَرِهِم جعله يطلب لهم الحُسْنَيَيْنِ من خير الدنيا والآخرة.

ولعل أهم ملاحظة يمكن أن نسجلها على بصورة إجمالية إضافة إلى ما تم رصده من خصائص ومميزات على مستوى كل عنصر من عناصرها السبع، التي تشكل مقومات هيكلها العام هي ظاهرة السَّجع التي طبعتها بميسم خاص، وكانت ديدن الكاتب، والملمح الأبرز في أسلوبه.

كما نلمس أن السِّير تشترك مع القصص في التركيز على الشخصية.

# الفصل الثالث

## النص المنقبي

## مقاربة أسلوبية

بداية نميز في الاستشهادات الشعرية الواردة في الكتاب بين نوعين :

**النوع الأول:** من إبداع الشاعر(ابن أبي حجلة).

**النوع الثاني:** من اختياره .

ونحاول في تحليلنا التركيز على النماذج التي أبدعها الشاعر، أكثر من غيرها.

## المبحث الأول: التحليل الصوتي:

ونبحث فيه جانبين :

**الجانب الأول:** الموسيقى الخارجية بعناصرها الثلاثة: الوزن، والقافية، وحرف الروي.

**الجانب الثاني:**الموسيقى الداخلية ؛ من حيث أصوات الحروف ، وتكرارها، وتماثلها.

**توطئة:**

لا يختلف اثنان حول أهمية الصوت في اللغة ، وفي الحياة بصورة عامة لهذا جعله ابن جني عنصرا جوهريا في تعريفه الشهير للغة بقوله : " حدها ( اللغة ) أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " .[217]

ولذا يعد التحليل الصوتي مستوى أساسيا ضمن مستويات التحليل الأسلوبي .

### المطلب الأول : الموسيقى الخارجية :

1- **الوزن :**

نقصد بالوزن البحور العروضية التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) وعددها خمسة عشر بحرا .

" وسبب تسمية الوزن من أوزان الشعر بحرا أنه شبيه بالبحر ، فهذا يغترف منه ولا تنتهي مادته وبحر الشعر يورد عليه من الأمثلة ما لا حصر له "[218] .

---

217- ينظر : ابن جني : الخصائص ، تح : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، 1، 33 .

218 – محمود مصطفى: أهدى سبيل إلى علم الخليل العروض والقافية، دار الفكر العربي، بيروت ، ط1، 1997، 27 .

وللوزن مكانـة مميـزة فـي القصـيدة العربيـة ؛ كونـه " أعظـم أركـان حـد الشـعر وأولاهـا بـه خصوصية "[219].

وليس هذا ا لاحتفاء بـه ميزة خاصـة بالقدماء من النقاد، والمبدعين؛ حيث نلمسـه حتـى عند المحدثين، وفي مقدمة هؤلاء يقف طه حسين الذي يعتبره ركنا ضروريا في الشعر.

يقول : " الركن الثالث الذي لا بد للكلام أن يستوفيه ليكون شعرا هو الوزن" [220]. ويضيف لأكثر توضيح " ... وإذن فنحن نستطيع أن نُعَرِّفَ الشِّعر آمنين بأنـه الكلام المقيد بالوزن والقافية والذي يُقصَدُ به الجمال الفني "[221].

فـي استقرائنا لجملـة المقاطع الشعرية الـواردة فـي اختيـارات ابن أبـي حجلـة وجدنا أنهـا تشتمل على اثني عشر بحرا ( 12)، وهو ما تكشفه لنا إحصائية الجدول رقم (1).

**إحصائية توضح عدد البحور ونسب توزيعها في المختارات الشعرية**

| البحـــر | العدد | النسبـة | البحـــر | العدد | النسبـة |
|---|---|---|---|---|---|
| الطويـل | 40 | %21.39 | الرمـل | 3 | %1.60 |
| الكامـل | 33 | %17.64 | مجزوء الرمل | 3 | %1.60 |
| البسيـط | 30 | %16.04 | مجزوء المنسرح | 3 | %1.60 |
| الوافـر | 21 | %11.22 | الرجـز | 2 | %1.06 |
| السريـع | 14 | %07.48 | الهـزج | 2 | %1.06 |
| الخفيـف | 9 | %04.81 | المجتـث | 2 | %1.06 |
| المتقارب | 7 | %03.74 | مجزوء البسيط | 2 | %1.06 |
| المنسرح | 7 | %03.74 | مجزوء السريع | 1 | %0.53 |
| مجزوء الكامل | 5 | %02.37 | مجزوء المتقارب | 1 | %0.53 |
| مخلع البسيط | 5 | %02.37 | | | |
| المجمـــــــوع | | | | 187 | %100 |

**الجدول رقم (1)**

[219] - يوسف حسين بكار : بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1413هـ ، 1983م، 158 .

[220] – يوسف حسين بكار : المرجع السابق، 160 .

[221] – نفسه: نفسها .

نلاحظ من خلال الجدول (أعلاه) أن البحر الطويل يأتي في صدارة البحور الموظفة في الاختيارات الشعرية؛ حيث ورد في أربعين (40) مقطوعة، بنسبة تزيد عن ( 21%) بالقياس إلى مجموع المقطوعات البالغ عددها سبع وثمانين ومائة (187) مقطوعة.

ولا غرابة في تقدم هذا البحر هنا، واحتلاله هذه المرتبة إذا علمنا أنه " أحد الأبحر الثلاثة التي كثر ورودها في الشعر العربي القديم "[222]. بل يذهب البعض إلى أن" أكثر من ثلث الشعر العربي قديمه وحديثه نظم به " [223] .

ويليه البحر الكامل، الذي ورد في ثلاثين وثلاث(33) مقطوعات تاما أي بنسبة(17.36%) ، وفي خمس مقطوعات (5) مجزوءا .

وهو بدوره " أحد الأبحر التي كثر دورانها في الشعر العربي" [224].

ثم البحر البسيط الذي حل في ثلاثين (30) مقطوعة تاما ؛ بنسبة (06.04%) ، وفي خمس(5) مقطوعات مُخَلَّعاً، وفي مقطوعتين اثنتين (2) مجزوءا .

والبسيط بدوره من " الأبحر الثلاثة الأكثر شيوعا في الشعر العربي"[225] ، بل هناك من يجعله " في المرتبة الثانية بعد الطويل، من حيث نسبة الشيوع "[226].

وبعده البحر الوافر، الذي ورد في عشرين ومقطوعة واحدة(21) كلها تاما ؛ بنسبة (11.22%) .

والبحر السريع الذي ورد في أربع عشرة (14) مقطوعة ؛ بنسبة (07.36 %).

وتتوالى بعده بقية البحور بنسب متفاوتة ، وهي على التوالي :
الخفيف، والمتقارب، والمنسرح، والرمل، والرجز، والهزج، والمجتث .

ونخلص بذلك إلى أن المقطوعات الشعرية ، التي اختارها الكاتب أو المصنف – على مستوى الأوزان – لم تخرج عن التقليد السائد، والمتوارث في موسيقى الشعر العربي منذ القديم؛ حيث حافظت البحور الأكثر شيوعا في الشعرية العربية مثل: الطويل، والكامل، والبسيط، والوافر، والسريع، والخفيف على المراتب نفسها.

---

222 – ينظر : محمود مصطفى : أهدى سبيل إلى علم الخليل العروض والقافية ، 27 .

223 – أماني سليمان داود: الأسلوبية والصوفية ، 40 .

224 – ينظر: محمود مصطفى : المرجع السابق ، 37.

225 – نفسه: 32

226 – ينظر: عمر محمد طالب : عزف على وتر النص الشعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2000، 175.

إذا كان هذا حال الأوزان على مستوى ما اختاره بن أبي حجلة من أشعار. فهل يختلف الأمر فيما أورده من شعره ؟

نقول : إن إحصائية الجدول رقم (2) تساعدنا على إيجاد جواب لسؤالنا .

**إحصائية توضح عدد البحور ونسب توزيعها في شعر ابن أبي حجلة**

| الرقم | الوزن | العدد | النسبة | الرقم | الوزن | العدد | النسبة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 01 | الطويل | 04 | %40 | 04 | الكامل | 01 | %10 |
| 02 | الوافر | 02 | %20 | 05 | السريع | 01 | %10 |
| 03 | البسيط | 01 | %10 | 06 | المجتث | 01 | %10 |
| المجمـــــــوع | | | | | | 10 | %100 |

**الجدول رقم (02)**

يتضح لنا من خلال الإحصائيات السالفة أن الأوزان الأبرز فيها هي:

الطويل، الذي ورد في أربع (04) مقطوعات من أصل عشرة، ليشكل ما نسبته (40%) بالقياس إلى المجموع الكلي لعدد المقطوعات.

ويليه الوافر، الذي ورد في مقطوعتين اثنتين (02) بنسبة (20 %)، ثم الأبحر الأربعة الباقية ، وهي:

البسيط، والكامل، والسريع، والمجتث، وكل منها ورد في مقطوعة واحدة(01) وهو مانسبته (10%).

ويكرس ما جاء في هذه الإحصائية النتائج نفسها المتحصل عليها على مستوى اختيارات الكاتب(الجدول رقم 1).

وتقودنا هذه النتائج، والمعطيات إلى حقيقة مفادها أن الكاتب سواء فيما اختاره من شعر غيره، و ما أورده من شعره كان تقليديا؛ حيث لم يتسنى له الخروج عن الأطر الموسيقية لشائعة في الشعرية العربية، والمتوارثة جيلا بعد جيل.

ويبدو أنهل ظاهرة عامة في عصر ابن أبي حجلة لما رَجَّحَهُ مُؤَرِّخُوا الأدب ودارسوه على أن نسب شيوع أوزان في القرن السادس الهجري، وما بعده، قد ظلت تشبه النسب في شعر العصور الأولى"[227].

ولعلنا نفترض أن أحد المسوغات التي كانت سببا قويا وراء تكريس هذه التقاليد، وفي هذا العصر على وجه الخصوص – هو التحديات الخارجية التي كانت تهدد الأمة الإسلامية عامة، والوجود العربي تحديدا جرَّاء اجتياح المغول من الشرق، وتربص الفرنجة من الغرب، وسيطرة المماليك على مقاليد الحكم في الداخل، في هذا الظرف شعر الفرد العربي بالغُربة في وطنه، وأضحى كل ما يمُتُّ بصِلَةٍ كَنْزٌ ينبغي المحافظة عليه، ومن ثم فنحن لا نستبعد أن يكون الكاتب قد استحضر هذا البعد الحضاري في اختياره.

في ظل عصر– القرنين السابع والثامن الهجريين– يصفه البعض بأنه" عصر البحث عن الذات القومية التي تجلت في شكلها الإيجابي في العناية بالتاريخ القومي، والتاريخ الشعبي عصر تكامل السير والملاحم الشعبية، وعصر الموسوعات العلمية الضخمة والمعاجم اللغوية الكبرى"[228].

**القافيـة:**

جاء في تعريفها " أنها الحروف التي تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت الشعري" [229].

وقال الخليل: " القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن عليه مع الحركة التي قبل الساكن... .

وقال الأخفش: القافية آخر كلمة في البيت، وإنما قيل لها قافية لأنها تقفو الكلام .

وقال قطرب: القافية الحرف الذي تبنى القصيدة عليه، وهو المسمى رويا.

وقال ابن كيسان: القافية كل شيء لزمت إعادته في آخر البيت "[230] .

---

[227] – خالد إبراهيم يوسف : الشعر العربي أيام المماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 2003م ، 238.

[228] – عمر موسى باشا تاريخ الأدب العربي المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1425هـ ،2004م ،77.

[229] – محمود مصطفى، المرجع السابق، 84

[230] – ابن منظور: لسان العرب، م15، مادة قفا، فصل القاف، حرف الفاء، 225، 226 .

ونلمس من المحدثين من يسند رأي ابن كيسان، ومن هؤلاء" إبراهيم أنيس الذي يقول في القافية :" ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر والأبيات بين القصيدة وتكرارها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية فهي بمثابة الفواصل
الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا لتردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن[231].

والرأي الذي نميل إليه من بين كل هذه الآراء جميعها هو رأي الخليل، وهو ما رجحه ابن جني بقوله":والذي يثبت عندي صحته من هذه الأقوال هو قول الخليل "[232].

وتحظى القافية بهذا المعنى بالأهمية ذاتها، التي يحظى بها الوزن كونها شريكته في الاختصاص بالشعر الذي لا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية وهذه النظرة القديمة للقافية لا تختلف عنها نظرة المعاصرين الذين يعُدُّونَها عنصرا أساسيا ومُهِمّاً في بناء القصيدة وتوجيهها "[233].

وتنقسم القافية بحسب حركة حرف الروي[234] إلى نوعين :

2-1: **القافية المطلقة**: وهي ما كان حرف رويها متحركا، وهي الأكثر استعمالا في المقطوعات المختارة ، حيث وردت في أربع وسبعين ومائة (174) مقطوعة وهو ما نسبته (93.04 %) إلى المجموع لكلي للمقطوعات البالغ سبع وثمانين ومائة (187) مقطوعة، وهي نسبة عالية تؤكد ميل الشعراء إلى هذا النوع من القوافي، وكثرة تداوله في شعرهم.
في حين وردت القوافي المطلقة في ست (06) مقطوعات من أصل عشرة(10) من إبداع الشاعر ابن أبي حجلة؛ بنسبة ( 60 % ) .

وتنوعت حركات حرف الروي في القوافي المطلقة بين الكسر، والضم، والفتح .

**2-1-1: قوافي بحرف مكسور**: وهي الأكثر بين مجموع القوافي؛ فقد وردت في سبعين وسبع (77) مقطوعات، بنسبة تقارب (42%)، وهي نسبة مرتفعة نسبيا بالقياس إلى باقي الأنواع، يمكن ردها إلى سببين :

---

231 – د عبد الرحمن تبرماسين: البنية الإيقاعية للقصيدة في الجزائر، دار الفجر، القاهرة، ط1، 2003، 105.

232 – ابن منظور:المصدر نفسه،226.

233 – ينظر: يوسف حسين بكار: المرجع السابق ، 176.

234 – حرف الروي هو : الحرف الذي تبنى القصيدة عليه.

**أما الأول** : فطبيعة الخفض (الكسر) الذي يتميز بالخفة والسهولة، لذا وجدنا أن الكسرة توصف " بأنها أمامية لاحتلاها المراتب المتقدمة في الفم "[235] .

**أما الثاني:** فهو رغبة الكاتب في الظهور بمظهر الذِّلَّةِ والانكسار أمام مولاه السلطان ، الذي خضعت له الرقاب، وضرب بينه وبين الظلم بسور له باب على حد وصفه إياه، خاصة إذا علمنا أن السكردان هو هديته إلى السلطان.

وقد أورد هو نفسه (الكاتب) حكاية في هذا المعنى، وهي: " أن رجلا دخل على كافور الإخشيدي صاحب مصر فدعا له بقوله : أدام الله أيامِ مولانا– بكسر الميم من أيام– فعابه على ذلك .

فقام رجل من الحاضرين وأنشده مرتجلا :

لاَغَرْوَ أن لحَن الداعِي لسيِّدنا      أو غصَّ من دَهشٍ بالرِّيق أو بهَرِ
فتِلْكَ هَيْبَتُهُ حَالَتْ جَلَالَتُها      بَيْنَ الْأَديبِ وَبيْنَ الفَتْحِ بِالْحَصَرِ
وإن يكُن خَفْضُ الأيَّامِ مِنْ غَلَطٍ      في مَوْضِعِ النَّصْبِ لاَ عَنْ قِلَّةِ النَّظَرِ
فَقَدْ تَفَاءَلْتُ مِنْ هَذَا لِسَيِّدِنا      والفَأْلُ نُؤْثِرُهُ عَن سَيِّدِ البَشَرِ
بِأَنَّ أَيَّامَه خَفَضٌ بِلَا نَصَبِ      وأَنَّ أَوْقَاتَهُ صَفْوٌ بِلَا كَدَرِ " [236].

وقد وجدنا القوافي ذوات الحروف المكسورة في عمومها وردت في موضوعين رئيسين هما :الغزل والوصف .

وما يتميز به الغزل من رقة، وخشوع، وذلة، ورخاوة[237]، تجعله يتناسب إلى حد ما مع طبيعة الخفض أو الكسر، والأمثلة على ذلك كثيرة نورد منها :

قول ابن أبي حجلة في وصف الأزهار:.[238]

إِي والرَّبيع النظِيرِ      وزهْرِهِ المُسْتنِيرِ
من نرجَسٍ وأقَاحٍ      كأَعْيُنٍ وثُغُورِ
ومن شَقِيقٍ كحسْنَا      قدْ أقْبَلَتْ في حَرِيرِ

---

[235] – مصطفى حركات : الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر، دط، دت، 111.

[236] - ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 26 .

[237] – ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000 م، 2 ، 85.

[238]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق : 5.

وقول الوزير أبو عامر مستدعيا هندا المغربية[239].

ياهِ◌ِ◌◌ِنْدُ هلْ لكِ في زيارةِ فِتْيَةٍ نبذُوا المحَارِمَ غيْرَ شُرْبِ السَّلْسَلِ
سمِعُوا البَلاَبِلَ قدْ شَدَتْ فتذكَّروا نغَمَاتِ عُودِكِ في الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ

**2-1-2: قوافي بحرف مضموم**:وردت في خمسين وسبع (57) مقطوعات ، وهو ما نسبته (31%) تقريبا.

وفي استقرائنا لجملة المقطوعات الشعرية التي تضمنت هذا الصنف من القوافي وجدنا أنها في معظمها لا تخرج عن موضوع المدح.

فهل من علاقة بين المدح وحركة الضم ؟

إذا بحثنا في معاني المدح نجده" فطرة الإنسان، لأنه إحساس الكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه [...] فالواثق بنفسه الذاهب بها مذهب الغناء والإعتداد يجد في طبعه حركة واهتزاز متى حققت له أعماله تلك الثقة" .[240]

"وهذه الحركة والاهتزاز مؤشرات على الرفعة والعلو، وهو ما يتناسب مع صوت الضم الذي يجسد الفخر والاعتزاز والشموخ والتعالي" [241].

ومن نماذج هذه القوافي قول أبي العلاء [242] .

وإِنِّي وإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُه لآتِ بمَا لم تستَطِعْهُ الأَوَائِلُ

وقول ابن أبي حجلة في السلطان أبي عنان ملك المغرب [243].

عرِيقٌ لهُ في المُلْك مجْدٌ مُؤَثَّلُ وبيْتٌ قديمٌ في الفَخَار قَدَامِسٌ
وآباؤُهُ ممَّنْ حَوَى المُلْكَ قَبْلَهَ لهَم أوَّلُ عالِي المحَلِّ وسادِسُ
فأَمْسوا به كالسَّبْعةِ الشُّهُبِ في السَّمَا وخُدَّامُهُم فيها الجوَارِ الكَوَانِ◌ِسُ

وقول المتنبي [244] :

---

[239] – نفسه: 106.

[240] – مصطفى صادق الرافعي : المرجع السابق ، 72 .

[241] – أماني سليمان داوود: المرجع السابق ، 71 .

[242]– ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 4.

[243] – نفسه ، 12

[244] – نفسه، 182، وديوان المتنبي بشرح : مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ ، 2003م ، 2 ، 83 .

الخَيْلُ واللَيْلُ والبيْداءُ تعْرِفُنِي            والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرطاسُ والقلمُ

وقول شمس الدين محمد بن غانم يمدح السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمهما الله تعالى:[245] .

مَلِيكَانِ قَدْ لُقِّبَا بِالصَّلاَحِ            فَهَذَا خَلِيلُ وَذَا يُوسُفُ

فَيُوسُفُ لاَشَكَّ فِي فَضْلِهِ            وَلِكنْ خَلِيلُ هُوَ الْأَشْرَفُ

**2-1-3: قوافي بحرف مفتوح** : وردت في ثلاثين وثمان (38) مقطوعات أي بنسبة تزيد عن (20%) وهي نسبة أقل من نسبتي الصنفين السابقين رغم أن الفتحة تبدو أوضح من الضمة والكسرة" [246] .

ولم تبرز القافية ذات الحروف المفتوحة في موضوع محدد، حيث تحضر بنسب متقاربة في المدح، والغزل، والوصف، والحكمة .

**2-2: القافية المقيدة:** وهي ما كان حرف رويها ساكنا.

وقد وردت في ثلاث عشرة(13) مقطوعة، بنسبة تقارب (07%)، وهي نسبة ضعيفة تدل على عدم احتفاء الشعراء بهذا النوع من القوافي.

ووردت في أربع مقطوعات (04) من أصل عشرة في شعر بن أبي حجلة؛ بنسبة (40%)، وهي نسبة تفوق بكثير نسبتها إلى مجموع الاختيارات كلها .

ومن نماذج هذه القافية في شعره:

قوله في مدح السلطان الملك الناصر حسن:.[247]

لَئِنْ أُنْسِيتَ مَنْ يَهْوَاكَ غَيْرِكَ            فَمَا أَحْلَى عَلَى الْأَفْوَاهِ ذِكْرَكْ

فقُلْ مَا شِئْتَ وَاحْكُمْ فِي الْبَرَايَا            فَكُلُّ النَّاسِ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَكْ

وقول عفيف الدين التلمساني رحمه الله:[248].

أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ وَلَمْ تَقْتَصِرْ            وَزِدْتَ فِي اللَّوْمِ يَا ذَا الْعُذُولْ

---

[245] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 78 .

[246] – ينظر: أماني سليمان داود : المرجع السابق ، 72 .

[247] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 95

[248] – نفسه ، 101

قَدْ رَضِيَتْ نَفْسِي بِمَحْبُوبِهَا       وَإِنَّماَ الْمَوْلَى كَثِيرُ الْفُضُولْ

وقول جارية الرشيد غادر على لسان الهادي، الذي حضرها في المنام:[249] .

أَخْلَفْتَ وَعْدِي بَعْدَمَا       جَاوَرْتُ سُكَّانَ الْمَقَابِرْ

وَنسِيتَنِي وَحَنَثْتَ في       أَيْمانِكَ الزُّورَ الْفَوَاجِرْ

وَنَكَحْتَ غَادِرَةَ أَخي       صَدَقَ الَّذي سَمَّاكَ غَادِرْ

وقول بعضهم متلطفا:[250].

وَالْأَعْوَرُ الْمَمْقُوتُ مَع قُبْحِهِ       أَفْضَلُ مِنَ الْأَعْمَى عَلَى كُلِّ حال

**3- حرف الروي:**"وهو الحرف الذي بنيت عليه القصيدة وتنسب إليه"[251].

كما هو الحال مع سينية البحتري، ودالية الأعشى، وعينية أبي ذؤيب، وغرها .

"قال الأخفش: الروي الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ويلزم في كل بيت منها في موضع واحد نحو قول الشاعر:

إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ       وَأَوْمَتْ إليه بِالْعُيُوبِ الْأَصَابِعُ

قال: فالعين حرف الروي وهي لازم في كل بيت [...] ، وجميع حروف المعجم تكون رويا إلا الألف والياء والواو"[252] .

وجاء حرف الروي فيما ورد من اختيارات شعرية متنوعا تنوع موضوعاتها ، وهو ما تكشفه لنا إحصائية الجدول رقم (3).

## إحصائية تبرز عدد حروف الروي ونسب توزيعها في المقطوعات

| الرقم | الحرف | العدد | النسبة% | الرقم | الحرف | العدد | النسبة % | الرقم | الحرف | العدد | النسبة% |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|

249 – نفسه ، 176 .

250 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 21 .

251 – محمود مصطفى : المرجع السابق ، 85 .

252 – ينظر: ابن منظور: المصدر السابق ، م 14 ، مادة روي ، فصل الراء ، حرف الواو ، 429.

| | | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 01 | الراء | 29 | 15.50 | 09 | السين | 08 | 4.27 | – | الضاد | 02 | 1.06 |
| 02 | اللام | 24 | 12.83 | 10 | التاء | 06 | 3.20 | – | الطاء | 02 | 1.06 |
| 03 | الدال | 19 | 10.16 | – | الفاء | 06 | 3.20 | 19 | الهمزة | 01 | 0.53 |
| 04 | النون | 15 | 8.02 | – | الكاف | 06 | 3.20 | – | الثاء | 01 | 0.53 |
| 05 | الميم | 14 | 7.48 | 13 | الهاء | 04 | 2.13 | – | الذال | 01 | 0.53 |
| 06 | العين | 13 | 6.95 | – | الياء | 04 | 2.13 | – | الزاي | 01 | 0.53 |
| 07 | الباء | 12 | 6.41 | 15 | الحاء | 03 | 1.60 | – | الشين | 01 | 0.53 |
| – | القاف | 12 | 6.41 | 16 | الجيم | 02 | 1.06 | – | الواو | 01 | 0.53 |

**الجدول رقم (03)**

نلاحظ من خلال الإحصائية السابقة أن الحروف الأكثر استعمالا كروي في المقطوعات الشعرية المختارة هي على التوالي:

**أولا:** حرف الروي الذي ورد في عشرين وتسع (29) قوافي، بنسبة (15.50%).

**ثانيا:** اللام الذي ورد في عشرين وأربع (24) قوافي، وهو ما نسبته (12.83%).

**ثالثا:** الدال وورد في تسع عشرة(19) قافية، بنسبة (10.16%).

**رابعا:** النون ورد في خمس عشرة (15) قافية أي بنسبة (8.02%) .

**خامسا:** الميم وجاء في أربع عشرة(14) قافية، وهو ما نسبته (7.48%) .

**سادسا:** العين وورد في ثلاث عشرة (13) قافية، بنسبة (6.95%) .

**سابعا:** الباء والقاف وورد كل منهما في اثنتي عشرة (12) قافية، وهو ما نسبته (6.41%) .

وتتوالى الحروف الباقية بأعداد ونسب متفاوتة، كما توضحه إحصائية الجدول رقم(3) .

والحقيقة أن حروف: الراء، واللام، والدال، والنون، والميم، والعين، والباء، والقاف الأكثر توظيفا كروي في مختارات ابن أبي حجلة الشعرية هي نفسها الحروف الأكثر شيوعا في الشعرية العربية عامة، بحسب التصنيف الذي أورده الدكتور إبراهيم أنيس، حيث قسم حروف الروي حسب نسبة شيوعها إلى أربعة أقسام وهي:

أ – حروفا تجيء رويا بكثرة وإن اختلفت نسبة شيوعها كقافية في أشعار الشعراء وتلك هي : الراء، اللام، الميم، النون، الباء، الدال، السين، العين .

**ب** – حروف متوسطة الشيوع وتلك هي: القاف، الكاف، الهمزة، الحاء، الفاء، الياء، الجيم

**ج**– حروف قليلة الشيوع : الضاد، الطاء، الهاء، التاء، الصاد .

**د**– حروف نادرة في مجيئها رويا: الذال، الغين، الخاء، الشين، الزاي، الظاء، الواو"[253] .

والملفت للانتباه أن ما تكشفه لنا إحصائية الجدول رقم(3) يكاد يكون صورة طبق الأصل لم جاء في التصنيف، الذي أورده الدكتور إبراهيم أنيس سواء على مستوى الحروف الأكثر شيوعا، أو متوسطة الشيوع، أو حتى على مستوى الحروف قليلة الشيوع والنادرة في مجيئها رويا .

ونستنتج بذلك أن الحروف، التي ورد ت رويا في المختارات الشعرية، التي تضمنها السكردان لا تخرج عن التقاليد المتوارثة في موسيقى الشعر العربي، ولا خصوصية تميّزها عن غيرها .

## المطلب الثاني:الموسيقى الداخلية :

قد عرفنا أن الموسيقى الخارجية تنحصر في الوزن والقافية أساسا فما المقصود بالموسيقى الداخلية؟

"يرى لامبورن أنها: اختيار الكلمات وترتيبها؛ والمواءمة بينها والمعاني التي تدل عليها" .[254]

ولا يبتعد شوقي ضيف في تعريفه لها عن لامبورن، يقول :

" هي موسيقى خفيفة تنبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما بينها من تلاؤم في الحروف ، والحركات، ... وبهذه الموسيقى الداخلية يتفاضل الشعراء" [255] .

وتشتهر الموسيقى الداخلية لدى المعاصرين بمصطلح آخر هو الإيقاع " والإيقاع في أبسط تعريف له هو تعاقب أنغام منسقة في عملية تتابع .

---

[253] – ينظر: عمر محمد طالب: عزف على وتر النص الشعري، 176 نقلا عن إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي .

[254] – ينظر : حسين يوسف بكار: المرجع السابق، 194 .

[255] – نفسه ، 195

ويأتي من اختيار الكلمات من حيث كونها تعبر عن قيمة التأثير الذي تحدثه وظيفة الكلمة في مدلولها الإيقاعي فهو إحداث استجابة ذوقية تمتع الحواس وتثير الانفعالات . كما أن عدد الكلمات التي تُكوِّن الإيقاع بتركيباتها تعتمد تماما على عدد الكلمات اللازمة لتوصيل المعنى في النثر".[256]

وتركز التعريفات السابقة على عنصرين أساسيين هما : الاختيار، والتركيب أو التأليف لما لهما من أهمية بالغة في تحقيق التجانس الموسيقي.

ونقتصر في تحليلنا ههنا على مستويين اثنين وهما التكرار، والتماثل الصوتي.

## 1- التكرار:

جاء في اللسان في مادة " كرر": "...كرر الشيء وكركره: أعاده مرة بعد أخرى، والكرة : المرة، والجمع الكرات.[...].

ويقال: كررت عليه الحديث، وكركرته إذا رددته عليه[...] ومنه التكرار"[257] .والتكرار بهذا المعنى هو الإعادة، والترديد.

والتكرار في الاصطلاح:" دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مرددا واللفظ واحد ويكون بتكرار حرف، أو لفظة، أو جملة، أو حركة"[258].

فالتكرار بذلك يشمل الحرف، واللفظة، (الكلمة)، والجملة، والحركة .

### 1-1: تكرار الحروف:

إن استقراءنا لجملة الحروف المستعملة في مقطوعات ابن أبي حجلة الشعرية تظهر لنا الحضور المكثف للأصوات (الحروف) المجهورة [259] . حيث وردت بنسبة تزيد عن (80%) بالمائة .

---

[256] – إبراهيم جنداري : الإيقاع في القصة القرآنية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، العدد 379 ، 2002 م . 1423 هـ .

[257] – ابن منظور : المصدر السابق ، م5 ، مادة" كرر" فصل الكاف ، حرف الراء ، 160 ،

[258] – عبد الرحمان تبرماسين : المرجع السابق ، 192 .

[259] – الأصوات المجهورة هي: تتز عند النطق بها، الأوتار الصوتية مثل: الزاي، والجيم، والدال، والغين، والقاف، والياء، والضاد، واللام، والنون، والباء، والميم .

في حين لم تتجاوز نسبة توظيف الأصوات (الحروف) المهموسة [260] العشرين(20%) بالمائة في أفضل الحالات، وهو ما شكل ملمحا أسلوبيا بارزا.

والحروف الأكثر تكرارا بين الحروف الجهرية هي: اللام، والميم، والنون .

فاللام الذي يوصف بأنه " حرف لثوي جانبي، بين الشدة والرخاوة، مجهور، فموي ، منفتح [...]وينطق بطريقة مرققة كما ينطق مفخما [261] هذا الحرف يرد خمس (05) مرات، في أكثر الأبيات، ونسبة توظيفه الكلية نزيد عن (12%).

أما الميم" الشفوي الخيشومي" [262] فيزيد بمعدل أربع (04) مرات في كل بيت، وهو ما نسبته (10%).

والنسبة نفسها نجدها مع حرف النون " الأسناني"، الشديد، المجهور، المنفتح، الخيشومي" [263] الذي يشترك مع حرف اللام في صفات : الشدة، والجهر، والانفتاح، ومع حرف الميم في صفتي : الجهر، والخيشومية .

وقد أكسب تكرار هذه الأصوات (الحروف)- بما تتميز به من شدة ، و"جهرٍ كُلِّي" [264] الأبيات الشعرية نغما موسيقيا يتلاءم، والسياق العام الذي وردت فيه أغلب المقطوعات، التي نلمس فيها حرصا من لدن الشاعر على إبراز صفات ممدوحه، وإشاعتها بين عامة الناس، فكان اختياره لهذه الأصوات (الشديدة والمجهورة) ينسجم وتحقيق مقصده .

## 1-2: تكرار الكلمات :

" إذا كان تكرار الحرف وترديده في الكلمة الواحدة يمنحها نَغْمَةً وجرسا ينعكسان على جمال الصورة فإن تكرار اللفظة في المُعطى اللغوي لا يمنح النَّغَم فقط بل يمنح القصيدة قوة وصلابة

---

[260] – الأصوات المهموسة هي: التي لا تتز عند النطق بها الأوتار الصوتية، مثل: السين، والشين، والتاء( ينظر :مصطفى حركات، المرجع السابق، 45 ، 90) .

[261] – ينظر : مصطفى حركات : المرجع السابق ، 101 ،102 .

[262] – نفسه: 95 .

[263] – ينظر : مصطفى حركات : المرجع السابق ، 97 .

[264] – عبد الرحمان تبرماسين : المرجع السابق، 201 .

نتيجة ذلك الترديد للفظة المتكررة ، وخير مثال من واقعنا الديني: الحركة الإيقاعية الناتجة أولا عن تكرار العنصر الواحد، وثانيا من ترديده الجماعي لتلك الحركة كما في الصلاة، وفي الطواف، وأجمل منظر تكراري يحمل صيغة القوة والملحمة والحركة هو صلاة الجماعة" [265] .

ونميز في التكرار بين نوعين: تكرار عمودي ، وتكرار أفقي .

1-2-1: **التكرار العمودي**: ويتمثل في تواتر كلمة على مستوى أكثر من بيت واحد ، مع محافظتها على الموقع نفسه، الذي وردت فيه في البيت الأول .

ومن نماذج هذا النوع ما أورده ابن أبي حجلة في مدح شيخ المدرسة الأشرفية(شيخو) يقول في المقطع الأول [266]:

شيخو حَمى جيرانَها وأَجارَها    وعَـلا بهِمَّتهِ سُهَيلا جارَها
شيخو فَتى الفِتْيان إنْ حَمى الْوَغى    أَطْفى فَوارِسَها وأَضْرَمَ نارَها
شيخو يَبيتُ البَرْقُ خَلْفَ جِيادِه    يَجْري ولكن لا يشُق غُبارَها
شيخو مناجِلُهُ صَوَارِمُهُ التـي    حَصَدَتْ بِها أَعْدَاؤُهُ أَعْمارَها
شيخو تَخاف الأُسْدُ منه فأصبَحَتْ    مِصْرُ وَقَدْ أَخْلَتْ بِهَا أَوْكارَها
شيخو عَلَت دَرَجاتُه بِمَنَارَةٍ    عَلَتِ النُّجُومُ وحَدَّثَتْ أَخْبارَها
شيخو فَتى الفِتْيانِ سُحُبُ نَوَالِهِ    أَرْخَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيَاءِ إزارَها

ويقول في الثاني:[267]

شَيْخٌ إلى سُبُل الرَّشاد مَسْلَك    وطَريقُه في العِلْمِ مالَا يُجهَل
شَيْخٌ بحُسنِ بَيانِه وشُروحِه    ما باتَ بالْمفْتاحِ بَابٌ يُقفَل
شَيْخٌ تبحَّر في العُلوم فمن رأى    بَحْرا يَسُوغُ لِوارِديهِ المَنْهَل    شَيْخٌ
عليه مِنَ المَهابَة رَوْنَق    البَدرِ لكن وَجْهُهُ مُتَهَلِّل    شَيْخٌ له في
الطالِبين مَسائل    في العِلم عمَّن ليس يَسأل يُسأل    شَيْخٌ تقدَّم في

---

[265] –نفسه : 211 .

[266] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 57 .

[267] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 58 .

العُلوم لأنَّـه        إن عُدَّ أَرْبـاب الْفَضَائِلِ أوَّل        ماقيل هذا كامل في ذاتِه

إلاَّ وقُلْتُ الشَّيْخُ عندي أَكْمَل

ويحقق تكرار كلمتي "شيخو" في المقطوعة الأولى، و"شيخ" في المقطوعة الثانية الأغراض التالية:

**أولا:** الجمالية الموسيقية، بما تضفيه من جرس موسيقي مميز على جو المقطوعتين .

**ثانيا:** منح القوة، والصلابة، والتماسك للمقطوعتين .

**ثالثا:** دلالية " فالشاعر عندما يكرر وحدة معجمية بنفس اللفظ فإنه يقصد إلى الإلحاح والتأكيد على عنصر دلالي من عناصر الإرسالية، ونقله إلى المتلقي المباشر، ومما يعزز عنده الفكرة أن التكرار يقترن دائما بالهواجس والأحاسيس الأساسية التي تدمن الحضور في البنية النفسية للشاعر" [268] .

ويظهر بذلك أن للتكرار أثر على مستويات اللغة الشعرية الثلاث: الصوتي والتركيبي ، والدلالي .

**1-2-2: التكرار الأفقي:** ويتمثل في ترديد الكلمة على مستوى البيت الواحد أكثر من مرة

ونوضح هذا النوع من التكرار في إحصائية الجدول رقم (4) .

| الصفحة | المقطوعة | البيت | الكلمات المتكررة | صدر البيت | عجز البيت |
|---|---|---|---|---|---|
| 12 | 6 | 3 | علا – علا | 1 | 1 |
| 54 | 4 | 4 | منه – فمنه | 1 | 1 |
| " | " | 5 | البدر – البدر | 1 | 1 |
| " | " | 7 | كما بين – كما بين | 1 | 1 |
| " | " | 8 | اليماني– برق – برق – يماني | 1 | 1 |

268 – عمر محمد طالب: المرجع السابق ، 187 .

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| " | " | 11 | في – وفي | 1 | 1 |
| 57 | 5 | 1 | جيرانها – أجارها – جارها | 2 | 1 |
| 57 | 5 | 2 | فتى – الفتيان | 2 | – |
| " | " | 6 | علت – علت | 1 | 1 |
| 58 | 6 | 3 | تبحر – بحرا | 1 | 1 |
| " | " | 5 | مسائل – يسأل – يسأل | 1 | 2 |
| " | " | 8 | قيل – كامل – قلت – أكمل | 1 | 1 |
| 59 | 7 | 1 | منه – منه | 2 | – |
| " | " | 2 | أن الله – أن الله | 1 | 1 |
| 60 | 8 | 1 | يترك – يترك | 1 | 1 |
| " | " | 5 | أدركت – يدرك | 1 | 1 |
| 71 | 9 | 4 | تعرى – العرايا | 1 | 1 |
| " | " | 6 | في – في – في | 2 | 1 |
| " | " | 7 | خلفت – خلفك | – | 2 |
| 95 | 10 | 6 | الله – الله | 1 | 1 |

نستشف من خلال إحصائية الجدول رقم(4) ما يلي:

**أولا:** أن تكرار الكلمات ظاهرة بارزة في جل المقطوعات، حيث ورد في سبع مقطوعات من أصل عشرة، بنسبة (70%) .

**ثانيا:** أن تكرار الكلمات مرتين على مستوى البيت الواحد الأبرز في المقطوعات الشعرية، حيث ورد بنسبة(85%) .

أما تكرار الكلمات أكثر من مرتين فقد ورد بنسبة لا تتجاوز (15%) .

وجاء تكرار الكلمات في صورتين :

- **الصورة الأولى:** كلمات متجانسة نحويا، ويطلق عليها القدامى مصطلح "الإتحاد أي اتحاد اللفظتين من كل وجه، وعلى الإطلاق " [269]، وهي الأكثر بين الكلمات المتكررة، مثل: (البدر/ البدر)، (البرق/ البرق)، (علت/ علت)، (منه/ منه)، (الله/ الله) .

[269] – محمد مفتاح : في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 34 .

- **الصورة الثانيـة:** كلمات غير متجانسة نحويا، ويطلق عليها القدامى مصطلح" المقاربـة أي اتحاد اللفظتين من بعض الوجوه: [270]، ومن نماذج هذه

الكلمات: (فتى/ الفتيان)، (تبحر/ بحرا)، (أدركت/ يدرك)، ( تعرى/ العرايا).

وقد حقق التكرار الأفقي وظيفتين فيما يبدو لنا ، وهما:

- الوظيفة الجمالية الموسيقية من خلال أثر النغمات المتكررة .
- الوظيفة الدلالية بتأكيد المعنى لدى المتلقي، والإلحاح عليه .

## 2-2 التماثل الصوتي:

2-**1 حـروف اللـين** (المد) يلاحظ القارئ لشعر ابن أبي حجلة كثرة "المقاطع الصوتية الطويلة المؤلفة من صامت [271] وصائت [272] سواء أكان هذا الصائت الطويل ألفا أو واوا أو ياء، حتى شكلت ظاهرة بارزة في أغلب مقطوعاته .

ولحرف المد والحركات "وظيفة فنية صوتية إذ تؤدي في الغالب إلى تنوع النغمة الموسيقية للفظة أو الجملة، فهي ذات مرونة عالية، وذات سعة في إمكانيتها الصوتية، فتضفي موسيقى خاصة ذات تأثير نفسي يشبه ذلك التأثير الذي يحققه اللحن الموسيقي"[273].

ومن النماذج التي تظهر هذه الحروف:

قول الشاعر[274]: إِي والرَّبيع النظِيرِ وزهْرِهِ المُسْ◌َتنيرِ

وقوله[275]: نَبِيٌّ عَلا السَّبعَ الطِّباق بِنَفْسهِ وَمَا لِلْعُلا إلا النُّفُوسُ النَّفائِسُ

وقوله[276]: شَيْخٌ تبحَّر في العُلوم فمن رأى بَحْرا يَسُوغُ لِوارِديهِ المَنْهَل

وقوله[277]: غَدا سُلطانُنا مَلِكَ البَرايا رَعاهُ الله يَعْدِل في الرَّعايا

---

270 – نفسه ، نفسها .

271 – الصامت: هو صوت يلتقي الهاء بحاجز، عند النطق به، والصامت في حاجة إلى حركة تسبقه أو تتبعه لكي يسمع بصفة جلية.

272 – الصائت يتميز بطريقة النطق ، ففي التلفظ به يمر الهواء عبر جهاز النطق بطلاقة . ( ينظر: مصطفى حركات : الصوتيات والفونولوجيا، 49 ، 50 ) .

273 –ينظر: أماني سليمان داود : المرجع السابق .

274 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 5 .

275 – نفسه :12 .

276 – نقسه :58

وقوله أيضا:[278]

فَيَا مَنْ رَاحَ يَعْذِلُ مُسْتَهَاماً          عَلى حُلو الشَّمائِلِ مَا أَمرِكْ
ويا مَنْ راح يَشْكُو كَسْرَ قَلْبٍ          أَرى بِالنَّاصِرِ السُّلطان جَبْرَكْ
رَعَاكَ الله مِنْ مَلِكٍ هُمام          أَعَزَّ الله بِالتَّأْيِيدِ نَصْرَكْ

وتظهر الأصوات الممدودة على مستوى الأبيات السالفة في الكلمات التالية : " أبي، الربيع، النضير، المستنير، علا، الطباق بنفسه، ما، للعلا، النفوس، النفائس ، العلوم، يسوغ، لوارديه غدا، سلطاننا، البرايا، الرعايا، رعاه، فيا، راح، يشكو، مستهاما، الشمائل، ما، رعاك، الله، همام، الله، التأييد" .

وتكشف إحصائية هذه الكلمات أن حرف المد الأبرز استعمالا فيها هو حرف الألف، حيث ورد بنسبة (68%)، ولعلل مبرر ذلك يعود إلى الخصائص الصوتية الطبيعية في هذا الحرف الذي لا يستطيع أن يكون إلا حرف مد " [279] .

ويليه في الترتيب حرف الياء بنسبة (21%)، وأخيرا الواو بنسبة(11%) .

ويتفق احتفاء الشاعر بالأصوات الممدودة، وعلى رأسها الألف، والغرض العام الذي طبع أغلب مقطوعاته، ونقصد به المدح.

فالشاعر حين يمدح إنما يسعى في ذلك إلى إبراز صفات ممدوحه، والتعريف به، ونشر فضائله، ومناقبه، بقصد تحقيق الشهرة والرفعة له، لذا وجدناه اختار المقاطع الصوتية الطويلة المؤلفة من صوامت- وأغلبها حروف جهرية- وصوائت .

## 2-2: النداء والتماثل الصوتي:

والنداء كما يعرفه البلاغيون" طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف من حروف النداء يحل الفعل المضارع " أنادي " المنقول من الخبر إلى الإنشاء محله " [280] .

---

[277] – نفسه :71 .

[278] – نفسه : 95 .

[279] - مصطفى حركات : المرجع السابق ، 109

[280] – يوسف أبو العدوس: البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1999،1، 66 .

وقد ورد النداء في ثلث (1/3) مقطوعات الشاعر تقريبا، أي بنسبة (30%)، وصيغة النداء الأكثر توظيفا فيه هي: الياء .

ونعرض للنداء هنا في بعده الصوتي، وليس بوصفه أسلوبا بلاغيا، لهذا وجدنا المقطوعة الوحيدة – تقريبا– التي يتجسد فيها هذا البعد الصوتي، هي قوله:[281]

فَيَا مَنْ رَاحَ يَعْذِلُ مُسْتَهَاماً        عَلى حُلو الشَّمائِلِ مَا أَمركْ

ويا مَنْ راح يَشْكُو كَسْرَ قَلْبٍ        أَرى بِالنَّاصِرِ السُّلطان جَبْرَكْ

فَيَا مَلِكاً عَلاَهُ كُل وَصْفٍ        يَقْصُرُ عَنْهُ مَدَّ الله عُمركْ

وهذا النداء: " فيا من راح"، "ويا من راح"، "فيا ملكا" ساهم في خلق جو موسيقي خاص متميز يسنده في ذلك "التكرار الأفقي غير التام الذي تقوم الصيغ الصرفية بمده عرضيا فتمنحه صفة الاتزان لاحتكامها إلى وزن واحد،ومن ثم ينبعث الإيقاع ذو زنة واحدة يؤدي إلى ترديد النغم المنسجم، ويطرد الملل الذي قد يترتب عن التكرار المتواتر "[282].

كما نلمس ملمحا آخر في صيغ النداء في الأبيات السالفة، حين تتبعها مقاطع طويلة، الصوت الثاني منها الألف ؛ وكأنها امتدادات للأصوات ونداءات متتالية، تعزز المعنى الذي يريد التعبير عنه "[283] .

ومن المعاني التي يريد التعبير عنها، إضافة إلى مدح وتمجيد ممدوحه الدعاء، الذي يبرز آخر الشطر الثاني من البيت الثالث في قوله [284]:( مد الله عمرك)، ويتجلى في البيت الذي يليه بصورة أوضح بقوله :

رَعَاكَ الله مِنْ مَلِكٍ هُمام        أَعَزَّ الله بِالتَّأْيِيدِ نَصْرَكْ.

---

[281] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 95

[282] –عبد الرحمان تبرماسين : المرجع السابق ، 222 .

[283] – أماني سليمان داود : المرجع السابق ، 90 .

[284] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 71 .

## المبحث الثاني: التحليل التركيبي:

وندرس فيه نظام الجملة من حيث الفعلية، والاسمية، والزمن النحوي، أو زمن الأفعال، والتعادل النحوي، وتحولات الضمائر.

### 1- نظام الجملة [285]:

### 1-1 – تركيب الجملة الاسمية:

[285] – نعتمد في دراستنا المفهوم الشائع لدى النحويين في تعريف الجملة ؛ الجملة الاسمية التي تبدأ باسم ، والجملة الفعلية التي تبدأ بفعل .

نسجل بداية كثرة الجمل الاسمية في مقطوعات الشاعر ابن أبي حجلة، وتحيلنا عليها قائمة الأسماء التي تصدرتها، وهي: الربيع، وعريق، وأمير، ومدرسة، وشيخو ، وشيخ، وأمنجك .

ولأن " التقديم والتأخير يشكل أحد الأساليب البلاغية والمباحث الأسلوبية لما له من دلالة على التمكن في الفصاحة، وحسن التصرف في الكلام، ووضعه في الموضع الذي يقتضيه"[286]. كان حريّ بنا إعادة النظر في قراءة مطالع الجمل السالفة .

ومن المعلوم لدى النحويين أن الابتداء في الجملة الاسمية إنما يختص به الإسم المعرفة، وأما النكرة فلا يصح الابتداء بها إلا لمسوغات حددها النحويون في موضعها.

ونحن إذا نظرنا إلى تلك الأسماء التي تصدرت الجمل، ومطالع المقطوعات السابقة نجدها كلها – عدا كلمتي : الربيع، وشيخو – نكرات .

فما مسوغات الابتداء بها، أو تقديمها ؟

إن وضع هذه الأسماء في سياقها النحوي، أو التركيبي يكشف لنا أنها جميعها تدور حول موضوعة واحدة هي: المدح .

فكلمة "عريق" ترد في سياق مدح السلطان أبي عنان ملك المغرب، و "أمير" في سياق مدح أمير العساكر المقر السيفي، و"ومدرسة" في سياق مدح المدرسة الأشرفية، التي ترأسها شيخو، فشَرُفَ بها كما شَرُفَتْ به .

وهكذا يتضح لنا أن الأسماء السابقة كلها تخص الممدوح، وهو ما سوغ تقديمها .

وهذا التقديم لا يخلو من أن يكون لأحد الأغراض الأسلوبية، أو الجمالية، التي نذكر منها :

أولا: إبراز أهمية الممدوح، وشد الانتباه إليه كما في قوله [287]:

عَريقٌ لَه في المُلك مَجد مُؤَثل  وبَيتٌ قَديمٌ في الفَخَار قَدَامِسُ

وقوله [288]: أَمِيرٌ مُحْكَمُ التَّدْبيـرِ طِبٌّ  مَلِيٌّ بالطَّعامِ والطِّعانِ

ثانيا: لتعظيم الممدوح، والتبرك به كقوله [289]:

---

[286] – ينظر: يوسف أبو العدوس : المرجع السابق ، 71 .

[287] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 12 .

[288] – نفسه ، 54 .

نَبيٌّ عَلاَ السَّبعَ الطِّبَاقَ بِنَفْسِهِ وَمَا لِلْعُلاَ إلاَّ النُّفُوسُ النَّفَائِسُ

ثانيا: لإثبات الأسبقية في التركيب كقوله [290]:

وآباؤُهُ مِمَّن حَوى المُلكَ قَبْلَهُ لَهُم أَوَّلُ عالي المَحَل وَسَادِسُ

كما أن الشاعر بتنكيره للمبتدأ في الجمل السالفة، يحقق بعدا جماليا آخر يتمثل في "توسيع الدلالة، وامتداد حدودها، من غير أن يحد التعريف من امتدادها، عندما يضعها في حيز معرف"[291] .

## 2-1 : تركيب الجملة الفعلية:

"تقتضي العقلية العربية أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير في التعبير ، لأن العربي جرت سليقته، ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث في الأحوال العادية الكثيرة[292] .

لذلك وجدنا ابن أبي حجلة يستعمل الجملة الفعلية بشكل واسع، حيث يبرز اهتمامه بالحدث(الفعل).

وهذا ماتوحي به الجمل الفعلية، الواردة في مقطوعاته الشعرية، ومنها:

"بات فيها للقلوب مهابة"، و" مدحت بها أعلى النبيين " و" صلى عليه الله ما ذكر اسمه "، و" أدركت المعالي بالعوالي " و" تولى الله حيث حللت نصرك " و" غدا سلطاننا ملك البرايا " .

كما لفت انتباهنا ملاحظة أخرى على مستوى الجمل الفعلية، وهي أن الشاعر في كثير منها، لا يكتفي بإيراد (فعل) واحد في البيت، بل يوظف فعلين أو أكثر غالبا .

من ذلك قوله في ذم عادة من عادات المصريين [293] .

دَع عَنكَ مِصْرَ فَأَهْلُها بَعدَ الوَفَا أَلِفوا الجَفا وتَحَجَّبُوا في الأَبْنِيَه

---

[289] – نفسه ، 12 .

[290] – نفسه ، 27 .

[291] – أماني سليمان داود: المرجع السابق: 101 .

[292] - صلاح الدين الزعبلاوي: الفعل تعريفه وأقسامه و أبوابه و شأنه في التعبير (مجلة التراث العربي)، العدد : 39 و40 نيسان و تموز 1990م ، شوال 1410هـ و المحرَّم 1411هـ .

[293] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق: 27 .

وتعدد الأفعال في هذا البيت يأتي للإيضاح أولا، ولإثبات الحجة والبرهان ثانيا ؛ فالشاعر عندما ينصح بالابتعاد عن مصر يقدم مبررات لذلك في شكل أفعال متتابعة :( ألفوا، وتحجبوا ).

وقوله[294]:

فباعَ الشِّركُ مِنكَ اليَوْمَ شِبْرٌ　　فمُدَّ لِحَتْفِ أهلِ الزَّيْغِ فَتْرَكْ

وَصَلِّبْ في جُذوعِ النَّخْلِ مِنهُم　　لِيَنْكَسِرَ الصَّلِيبُ إذاً و يُتْرَكْ

فَكَمْ سَكَّنْتَ مِنْ خَفَقَانِ قَلْبٍ　　إذا ما قِيل جَيشُهُم تَحَرَّكْ

في هذه المقطوعة نلمس رغبة ملحة لدى الشاعر، في إنهاء مشهد الحرب، فيوظف أفعالا متلاحقة؛ يُسَرِّعُ من خلالها وتيرة الزمن، فيبدأ بالفعل(باع) الذي وإن كان يمثل حدثا سالفا، إلا أنه بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل النار؛ كونه السبب في تحريك الأحداث. ثم الأفعال:(مد)، و(صلب)، و(لينكسر)، وبعد هذا الفعل يتحقق الهدف القريب، وهو انكسار الصليب، ثم الهدف البعيد، ويؤشر عليه الفعل"ويترك"، ومن ثم تعود الأمور على حالتها الطبيعية، حيث تسكن القلوب الخائفة "سكنت خفقان قلب"جراء تحرك الجيوش .

كما نلمس ميزة أخرى في الجمل الفعلية، وهي: أنها تقوم على ثنائيتي النفي والإثبات .

يقول في مدح الأمير منجك:[295]

فأدركتَ المعالي بالعَوالي　　ولكن فضلُ جودِكَ ليسَ يُدْرَكْ

فالشاعر في هذا البيت يثبت للمد وجه إدراكه للمعالي من جهة ، وينفي أن يدرك جوده من جهة ثانية – ولو في المستقبل – كونه وظف حرف النفي (ليس) مع الفعل المضارع المبني للمجهول (يدرك)؛ بمعنى ما من امرئ يستطيع أن يدرك فضل جود ممدوحه، فهو نفي مطلق .

ويقول في موضع آخر مادحا: [296]

---

[294] – نفسه ، 60 .

[295] – نفسه ، نفسها .

لئن أَمْسَيْتَ تعْرى من عُيُوب فقد كَسَيتَ بِنا تِلكَ العَرايا

نلمح هنا أنه ينفي عن ممدوحه العيوب، بقوله: "تعرى من عيوب"، ويثبت له الفضائل، ومن هذه الفضائل كسوته لرعيته المحتاجين، بلا عوض، بقوله:" فقد كسيت بنا تلك العرايا".

ونلمس في هذا البيت إشارة جمالية، وبعدا بلاغيا يتمثل في اختيار الفعلين"تعرى" و"كسيت" .

فالفعل "تعرى" فعل مضارع يدل على الحال والاستقبال يقصد الشاعر من ورائه إلى أن الممدوح مهما كانت العيوب، فهو عارٍ منها، لأن "تَعْرَى" مستمر في الزمن، ومفتوح على المستقبل دون تحديد .

بينما الفعل "كسيت" المنتهي زمانيا، بدلالته على حدث مضى وانقضى يؤكد من خلاله أن كسوته لرعيته أمر محقق لا جدال فيه، خاصة وأنه استعمل الأداة "قد" التي تفيد التحقيق مع الأفعال الماضية.

## 2- الزمن النحوي:

" يشكل الزمن النحوي عنصرا أساسيا في لأي نص شعري، لا يمكن الاستغناء عنه، لأن الأفعال الاجتماعية والأحاسيس الذاتية والمعاني الموضوعية لا تتم في فراغ، بل يقيدها تحديد زمني
لا يخرج عن الحاضر أو الماضي أو المستقبل " [297] .

ويبرز لنا الإحصاء الكمي للأفعال أن الفعل الماضي أكثر حضورا في شعر ابن لأبي حجلة، وقد ورد في سبعين وسبع (77) مرات .

أما الفعل المضارع فورد ثلاثين وسبع (37) مرات فحسب.

والأفعال الماضية، التي احتوتها المقطوعات هي:

أُبلت، أقيل، حوى، أمسوا، أنشأته، مدحت، ارتفعت، علا، كنت، صلى، ذكر، لاح، ألفوا، تحجبوا، قلبت، عاينت، أنار، أجلى، جاء، شاهد، قرت، أمسى، حمى، أجارها،علا، حمى، أطفى، أضرم، حصدت، فأصبحت، أخلت، علت، علت، حدثت،

---

[296] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 71 .

[297] – عمر محمد طالب : عزف على وتر النص ا لشعري ، 189 .

أرخت، بات، تبحر، رآى، تقدم، عد، قيل، قلت، أمس، كان، فباع، أظهرت، بينت، أعريت، سكنت، قيل، تحرك، تولى، أدركت، أوحشت، قالت، حللت، غدا، رعاه، حواها، فأخرج، استشهد، أمسيت، كسيت، صلت، حزت، حاز، خلفت، أنسيت، راح، راح، علاه، رعاك، أعز، شد، .

والأفعال المضارعة هي:

تنافس، تضوع، يعرف، يبدو، يستمد، يفوق، يتقارب، ترى، يسابق، يبيت، يجري، يشق، تخاف، يجهل، يقفل، يسوغ، يسأل، يسأل، أرى، أشهد، ترى، تترك، يدرك، يجري، يعدل، يقضي، تعرى، يهواك، أخشى، يمتثلون، بعذل، يشكو، أرى، يقصر.

بعدما رصدنا للحجم الكمي للأفعال على مستوى المقطوعات الشعرية، يقفز إلى خلدنا السؤال التالي:

ما دلالة الهيمنة الواضحة للأفعال الماضية على مستوى الزمن النحوي ؟

يمكن تفسير الحضور المكثف للفعل الماضي بما يلي :

أولا: تصوير الشاعر لأحداث سابقة في الزمن للحظة الإنشاد، التي جاءت متأخرة في العموم .

ثانيا: رغبة الشاعر في تحقيق أبعاد جمالية وبلاغية، من خلال تعبير بالماضي على الزمن الحاضر أو المستقبل، من ذلك قوله[298] :

أُشَمرُ للدُّعا في الأرضِ أَزْري وَرَبّي في السماء قد شَدَّ أَزْرَكْ

يفتتح الشاعر هذا البيت بالفعل"أشمر" الذي له دلالة واضحة على الزمن الحاضر وهذا الحاضر يستدعي ألا يخرج أي حدث يرد في الشطر الثاني من البيت عن هذا الإطار الزمني؛ بمعنى أن المتلقي كان ينتظر أن تكون صياغة الشطر الثاني من الشكل "وربي في السماء يشد أزرك"، يبدو أن الشاعر غير مجرى الزمن، واختار فعلا ماضيا (شد) يدل"يشد"، وليس هذا فحسب بل هو فعل ماضي محقق الوقوع .

حيث سبقته أداة التحقيق (قد)، وهي لفتة جمالية من الشاعر قصد من ورائها قطع الشك، وإثبات وقوع الفعل .

---

[298] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 95 .

ثالثا: أهمية الماضي بالنسبة للشاعر، ولممدوحيه على حد السواء، فهو يمثل له معينا يستقي منه الأحداث والأخبار، أما ممدوحيه فيشكل لديهم لحظات المجد التليد بما حفل من إنجازات .

رابعا: كون أغلب المقطوعات التي أوردها الشاعر كانت في الباب الخامس، الذي ذكر فيه ابن أبي حجلة طرفا من سيرة السلطان حسن، وسيرة إخوته، وأبيه، وعميه الأشرف، والصالح، وجده المنصور بن قلاوون، وهي جميعها تمثل أحداثا ووقائع سالفة في الزمن .

### 3- التعادل النحوي : (Le Parallélisme Grammaticale )

" لقد ارتبط مفهوم التعادل النحوي باسم رومان جاكوبسون (Roman Jakobson) رغم أنه من الناحية التاريخية مفهوم قديم بالمقارنة مع المفاهيم المقدمة من طرف البلاغة العربية التقليدية" [299] .

يقول في تعريفه المفهوم:"كل مقطع في الشعر له علاقة توازن بالمقاطع الأخرى في نفس المتتالية، وكل نبر للكلمة يفترض فيه أن يكون مساويا لنبر كلمة أخرى، وكذلك فإن المقطع غير المنبور يساوي المقطع غير المنبور والطويل عروضيا يساوي الطويل، والقصير يساوي القصير، وحدود الكلمة تساوي حدود الكلمة، وغياب الحدود يساوي غياب الحدود وغياب الوقف يساوي غياب الوقف، فالمقاطع تحولت إلى وحدات قياس، ونفس الشئ تحولت إليه أجزاء المقاطع وأنواع النبر"[300].

يبرز هذا التعريف أن مفهوم التعادل النحوي مفهوم واسع يشمل أكثر من مستوى في اللغة، حيث نجده في المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، إلا أن ما يعنينا هنا هو تحديد التعادلات النحوية، التي تمت في المستوى التركيبي فحسب.

ومن أمثلة التعادل النحوي قوله:[301]

قَلَّبْتُ بِها الأَعْيانَ حَتَّى أَنَّني          عَايَنْتُ بِها سَعْدَ الدِّينِ سَعْدَ الأَخْبِية

---

[299] – عمر محمد طالب : عزف على وتر النص الشعري ، 203 .

[300] – محمد مفتاح : في سيمياء الشعر القديم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، 1920 ، 46 .

[301] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 27 .

يظهر التعادل النحوي في هذا البيت على مستوى تركيب الكلمتين: (قلبت/ عاينت) ، في زمن الفعلين (الماضي) ، وفي عدد الحروف (خمسة) ، كما نجد تعادلا بالتطابق التام بين الكلمتين(سعد/ سعد) في الشطر الثاني من البيت .

إضافة إلى التعادل النحوي بين المركبات الإضافية ، كما في قوله: [302]

دِمَشْقِيُّ النَّجَارِ عَزِيزُ مِصْرٍ          يَمَانِيُّ الجُود صينِيُّ الأَواني

ففي هذا البيت نلفي المركبات الإضافية:(دمشقي النجار)، و(يماني الوجود)، ثم (عزيز مصر)، و(صيني الأواني) المتوازية هندسيا قد شكلت توازنا بين شطري البيت لتوفرها على العدد نفسه من الكلمات (أربع كلمات) في كل شطر. مما جعلها "تؤدي وظيفة جمالية (دمشقي النجار)، و(يماني الوجود)، ثم (عزيز مصر)، و (صيني الأواني) المتوازية هندسيا قد شكلت توازنا بين شطري البيت لتوفرها على العدد نفسه من الكلمات(أربع كلمات) في كل شطر. مما جعلها"تؤدي وظيفة جمالية كونها تنتظم غير المنظم من الألفاظ المعجمية، إضافة إلى إسهامها في المعنى، و تكوين الصورة"[303] .

ففي الحقيقة أن التعادلات النحوية إذا احتكمنا إلى تعريف جاكوبسون كثيرة جدا ، ومن أبرزها التعادلات الحاصلة على مستوى أزمنة الأفعال .

ومنها:

أولا: في الزمن وفيه:

( أقيلت/ أقبل)، و(مدحت/ ارتفعت)، و(صلى/ لاح)، و(ألفوا/ تحجبوا)، و(قلبت/ عاينت)، و(أجلى/ جاء)، و(قرت/ أمسى)، و(حمى/ أجارها/ علا)، و(حمى/ أطفى/ أضرم)، و(أصبحت/ أخلت) .

وكلها تمت على مستوى البيت الواحد من كل مقطوعة .

ثانيا: في الزمن الحاضر :وفيه:

يبيت/ يجري)، و(أرى/ أشهد)، و(يترك/ يدرك) .

---

302 – نفسه ، 54 .

303 – محمد مفتاح: المرجع السابق ن 46 ، 47 .

وهي جميعها كلمات (أفعال) لا رابط بين أغلبها، سواء من الناحية الصوتية، أو التركيبية، أو الدلالية، عدا الرابط الزمني، الذي وحَّدها وجعلهاضمن صورة منظمة .

## 4- الضمائر:

أول ملاحظة يمكن تسجيلها على الضمائر الواردة في المقطوعات الشعرية هي: أنها في معظمها(99.25%) ضمائر متصلة .

وهي تحيل على جهات متعددة (الإنسان- الطبيعة – وأشياء أخرى) لكننا سنركز في تحلينا على الضمائر التي تحيل على الأشخاص بالدرجة الأولى، وبالتحديد الممدوح ، و الشاعر"[304].

لأن المتتبع لجملة الضمائر، التي رصدها على مستوى المقطوعات كلها يدرك أن الغالبية العظمى منها تعود على هذين الطرفين؛ الشاعر، والممدوح .

### 4-1:ضمائر تحيل على الشاعر:

على الرغم من أن ضمير المتكلم (أنا) يعتبر الضمير البارز المنفصل الوحيد الوارد بين جميع الضمائر قد دل على ذات الشاعر، "والذي يستخدم عادة عندما يقدم الإنسان ذاته لمن يجهلها، أو عندما يؤكد ذاته لمن يجهلها " [305]. فإن الضمائر التي تحيل على الشاعر، تبدو ضمائر معدودات،

لقلتها، إذ لم يتجاوز عددها التسعة الضمائر وهي: أنا، وأنني، ولنا، ومذهبي، وقولي ، نظمي، وبنا، وسلطاننا، ولي، وهي جميعها كما يظهر ضمائر المتكلم .

وقد جاء ثلث هذه الضمائر (ثلاثة من تسعة) في قوله[306]:

ومِن مَذْهَبي حُبّ النبي وآلِهِ        وأصحابِه والتابعين الأئمهْ
ولم أخْشى في أثناءِ قَولي دَسائِساً     فيا وَيلَ مَن أَمْسى مِنَ الْحَشَوِيَّهْ
ولو كان هذا مَوضِعَ القَوْلِ أَظْهَرت     بدائعُ نَظْمي عَنْهُم كُلَّ بِدْعَهْ

في هذه الأبيات، التي يبرز فيها الشاعر انتماءه العقدي، والمذهبي، نلمس حضورا ملفتا لذاته، وهو أمر طبيعي يتناسب والسياق الذي يستدعي الإفصاح والتصريح، دون

---

304 – عمر محمد طالب: المرجع السابق ، 198 .

305 – ينظر: أماني سليمان داود : المرجع السابق ، 118 .

306 – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 59 ، 60 .

الإشارة والتلميح، وتتجلى الضمائر المحيلة على الشاعر في ياء المتكلم المتصلة في كلمات (مذهبي)، و(قولي)، و(نظمي) .

أما البقية من الضمائر، فتتوزع على المقطوعات الأخرى.من ذلك ضمير المتكلم (أنا) في قوله:[307]

نَبيٌّ علا السّبعَ الطِّباقَ بنفسِه          وما للعُلا إلا النُّفوسُ النَّفائِسُ

لئن كُنْتُ بِرُؤْياهُ طامِعاً          فما أنا مِنْ نَيْلِ الشَّفاعَة آيسُ

في هذا الموقف حيث يمدح الشاعر النبي صلى الله عليه وسلم، يبرز ذاته منفصلة ، ذاته الطامعة في رؤية النبي، ونيل شفاعته، وهي أمنية يتنافس عليها المتنافسون .

## 4-2: ضمائر تحيل على الممدوح:

نشير بداية إلى أن الممدوح إلى أن الممدوح ليس شخصا واحدا، وإنما هو متعدد ، بل نكاد نجد ممدوحا في كل مقطوعة شعرية .

فهو في مقطوعة الملك أبي عنان سلطان المغرب، وفي التالية أمير الجند المقر السيفي، وفي ثالثة شيخو شيخ المدرسة الأشرفية، وفي أخرى الأمير منجك أحد أمراء الجند، وفي الأخيرة السلطان الملك الناصر حسن ابن قلاوون .

بيد أن الملح المشترك بين جميع المقطوعات، هو هيمنة الضمائر العائدة على الممدوح التي وردت في سبعين ومرتين (72)، أي نسبة تزيد عن (57%)، قياسي إلى المجموع الكلي للضمائر، البالغ ستة وعشرين ومائة (126) ضمير .

وتتقسم الضمائر المحيلة على الممدوح بحسب صيغها على قسمين :

**4-2-1: ضمائر بصيغ الغائب:** وهي الأكثر، حيث بلغ عددها (44) ضمائر، وهو مانسبة (61%) تقريبا، منها: له، وآباؤه، وقبله، وبنفسه، واسمه، وذاته، وله، ومنه، ورعاه، وبه، وأعداؤه، ودرجاته، ونواله، وعليه، وطريقه ...

**4-2-1: ضمائر بصيغ المخاطب:** وبلغ عددها عشرين وثمانية (28) ضمائر .لتشكل بذلك نسبة(39%) .

فما دلالة هذه النتائج؟ .

---

307 – نفسه : 12 .

إن إيجاد تفسير مقنع لهذه النتائج؛ يقتضي منا العودة إلى السياقات النصية، التي وردت فيها تلك الضمائر، ونقصد بذلك المقطوعات السبع السالفة الذكر .

ولعل إيراد إحصائية الجدول رقم (05)، التي تبرز لنا بالتفصيل توزيع ضمائر الغائب، والمخاطب كما وردت في المقطوعات الشعرية، يساعدنا على كشف بعض الدلالات .

| الرقم | الممـــدوح | ضمائر الغائب | | ضمائر المخاطب | | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | العدد | النسبة | العدد | النسبة | |
| 01 | سلطان المغرب أبي عنان | 09 | 100% | / | - | 09 |
| 02 | المقر السيفي صرغتميش | 09 | 100% | / | - | 09 |
| 03 | شيخو | 08 | 100% | / | - | 08 |
| 04 | شيخو | 09 | 100% | / | - | 09 |
| 05 | الأمير منجك | / | - | 12 | 100% | 12 |

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| 06 | السلطان حسن | 04 | 30% | 09 | 70% | 13 |
| 07 | السلطان حسن | 02 | 17% | 10 | 83% | 12 |
| المجمـــوع | | 41 | 57% | 31 | 43% | 72 |

**إحصائية توضح توزيع ضمائر الغائب والمخاطب في المقطوعات الشعرية**

نسجل من خلال الجدول الملاحظات التالية:

– أولا: أن ضـمائر المخاطـب العائـدة علـى الممـدوح، لا وجـود لهـا علـى مسـتوى المقطوعات الأربع الأولى، أين تحضر ضمائر الغائب فحسب .

– ثانيا: أن المقطوعة الخامسة، الواردة في مدح الأمير منجك تفتقد ضمائر الغائب، حيث وردت جميع ضمائرها – وعددها اثني عشر ضميرا (12) – ضمائر مخاطب .

رابعا: أن المقطوعتين الوحيدتين اللتين فيهما تنوع في الضمائر المعبرة عن الممدوح هما: السادسة، والسابعة، ومدح فيهما الشاعر السلطان حسن ب الناصر بن قلاوون .

فما دلالـة هذا التبـاين الحاصـل علـى مستوى توظيـف الضـمائر بـين المقطوعـات الأربع الأولى منجهة، والثلاث الأخيرة من جهة ثانية ؟

إن التقسيم الذي نفترضه في كشف التباين الحاصل على مستوى توظيف الضمائر يقوم على ثنائية القرب والبعد من الممدوح بالدرجة الأولى .

ونقصد بالقرب والبعد (الزمني والنفسي) .

فهيمنة ضمائر الغائب في المقطوعات الأولى سببه – في تقديرنا – بعد الممدوحين عن الشاعر، والدليل على ذلك الزمن النحوي في تلك المقطوعات، أين نلمس حضورا واسعا للأطفال الدالةعلى الماضي أكثر من غيرها . وهو ما يفسر الغياب التام لضمائر الخطاب فيها .

أما المقطوعات الخاصة بمدح الأمير منجك ، والسلطان حسن بن قلاوون فالأمر فيها على النقيض، حيث تحضر ضمائر الخطاب ، وتتوارى ضمائر الغياب .

وعلة ذلك الحضور، وهذا الغياب يمكن ردها إلى سببين:

**أولا:** أن الموقف في مقطوعة مدح الأمير منجك يستدعي منه التعبير بضمائر الخطاب لذا نجده ينادي منجك بقوله [308]:

---

[308] – ابن أبي حجلة التلمساني : المصدر السابق ، 95 .

أَمَنْجَكُ سَلْ في الأعداء بترك    ولا تَتْرُكْ مِنَ الإِفْرَنْجِ بِتركْ
فباعَ الشِّرْكُ مِنكَ اليَوْمَ شِبْرٌ    فمُدَّ لِحَتْفِ أهلِ الزَّيْغِ فَتْرَكْ
وَصَلِّبْ في جُذوعِ النَّخْلِ مِنهُم    لِيَنْكَسِرَ الصَّلِيبُ إذاً و يُتْرَكْ

ففي هذه الأبيات دليل على قرب الأمير من الشاعر يكشف عنه توظيف الهمزة في النداء في قوله:(أمنجك)، ومعلوم أن الهمزة من القسم الذي ينادى به القريب " [309].

بالإضافة إلى هيمنة الزمن الحاضر، الذي يبرز الحضور المكثف للأفعال الدالة على الحال والاستقبال مثل: سل، وتترك، ومد، وصلب، ولينكسر، ويترك .

وهذا القرب خول للشاعر مخاطبة الأمير، وحثه على استنهاض الهمم، وتعبئة الجيوش لرد كيد الأعداء والمعتدين .

**ثانيا:** أن السلطان حسن يعد أقرب الممدوحين إلى الشاعر، وهو ما توحي به عدة مؤشرات منها:

أنه الممدوح الذي أحالت عليه أكثر الضمائر بين جميع المقطوعات، وهو الوحيد الذي نسبه الشاعر لنفسه بقوله [310]:

غَدا سُلْطَانُنَا مَلِكَ البَرايا    رَعاهُ الله يَعْدِلُ في الرَّعايا .

## المبحث الثالث : خاصية تنوُّع المفردات :

شاع في أدبياتنا استعمال كلمة أسلوب؛ للتمييز بين نتاجات المبدعين، فتجدنا ننادي بأعلى صوت وبكل ثقة: هذا أسلوب زيد، وذلك أسلوب عمر، بيد أننا في غالب الأحيان حين نسأل عن المقياس الذي احتكمنا إليه في تمييز أسلوب الأول عن الثاني، لا نقدم أجوبة شافية تقنع السائل، فتظل أحكامنا بذلك ذوقية انطباعية تفتقد إلى الموضوعية، والعلمية المتوخاة .

والخصائص الأسلوبية – في تقديرنا – كثيرة ومتنوعة، ولا يمكن الإحاطة بها في دراسة واحدة، أو بحث بهذا الحجم .

لأجل ذلك كان هدفنا محددا في هذا المبحث منذ البداية ؛ وهو قياس خاصية تنوع المفردات باعتبارها إحدى تلك الخصائص .

---

[309] – يوسف أبو العدوس : المرجع السابق ، 66 .

[310] نفسه :71 .

ولتحقيق هذا الهدف اعتمدنا الخطوات المنهجية التالية:

1- تحديد العينة التي أجرينا عليها الدراسة:

وقد اخترنا كعينة للدراسة جزءا من الباب الأول؛ والذي استقرأ فيه الكاتب حال العدد سبعة، وتقليبات حروفه الثلاثة .

والباب الثاني، الذي خصصه لبيان العلاقة بين العدد سبعة والسلطان حسن بن الناصر بن قلاوون .

والباب الخامس الذي ذكر فيه طرفا من سيرة السلطان، وسيرة إخوته، وأبيه وعمّيه الملك الأشرف، والملك الصالح، وجده الملك المنصور بن قلاوون .

وجاء اختيارنا لهذا الجزء من الكتاب (الأبواب: الأول، والثاني، والخامس من القسم الأول) للأسباب التالية:

أولا: لندرة الاقتباس فيه، وهو ما يبرز أسلوب الكاتب بجلاء .

ثانيا: حديث الكاتب فيه عن السِّير بما تتميز به من طول نسبي – وهو ما يستدعي منه توظيف أكبر رصيد من ثروته اللفظية .

ثالثا: حديث الكاتب فيه عن أحداث عصره، التي كان شاهدا على معظمها .

2- طريقة القياس:

اعتمدنا في قياس خاصية تنوع المفردات "طريقة جونسون " التي يرى فيها أن في الإمكان إيجاد نسبة لتنوع المفردات في النص أو في جزء منه إذا ما حسبنا فيه النسب بين الكلمات المتنوعة ويطلق عليها مصطلح الأنماط (types) أي المختلفة بعضها عن بعض ، والمجموع الكلي للكلمات المكونة له، ويطلق عليها مصطلح التحققات (tokens) "[311].

---

[311] – ينظر – سعد عبد العزيز مصلوح : في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ، عالم الكتب القاهرة ،ط3، 1422هـ-2002م ، 94 .

ومعنى ذلك أننا نحسب الكلمة الواحدة نمطا مهما تكررت في العيِّنة المختارة "وبعد إحصاء عدد الكلمات المتنوعة والمختلفة ) بوصفها " أنماط " يتم إيجاد نسبة التنوع بقسمة عددها على المجموع الكلي لكلمات العيِّنة ( التحققات) " [312] .

للحصول على نسبة التنوع قُمنا بالخطوات التالية [313]:

أ- عملنا نموذج لجدول مجموع خاناته مائة خانة[314] .

ب- وزعنا عدد كلمات العيِّنة(ثلاثة آلاف كلمة) على عدد الجداول فكان مجموعها بذلك ثلاثين جدولا ، بحيث نالت كل كلمة خانة مستقلة .

ج- شطبنا بعدها الكلمات المتكررة على مستوى الجدول الواحد ، بحيث تظهر كل كلمة مرة واحدة في الجدول الواحد ، لتشكل بذلك نمطا (types) .

د- بعد إنجازنا لهذا العمل على مستوى الجداول كلها، حصرنا عدد الأنماط الكلمات غير المشطوبة وكتبنا عددها أسفل كل جدول .

هـ- ولأن هدفنا قياس نسبة التنوع على مستوى العيِّنة كلها ( ثلاثة آلاف كلمة ) أعدنا إنجاز نماذج للجداول الأولى .

ونسخنا فيها الأنماط (الكلمات غير المشطوبة)، وقمنا " بمراجعة كل كلمة لم تشطب في الجدول الثاني على جميع الكلمات التي لم تشطب في الجداول اللاحقة (وعددها 28) وهكذا حتى نفرغ من جميع الجداول الثلاثين التي منها تتكون العيِّنة .

وبذلك نكون قد حصلنا على رقمين من كل جدول الأول للأنماط على مستوى الجدول، والثاني للأنماط على مستوى العيِّنة كلها " [315].

جدول رقم(1)

نموذج جدول استنساخ العينة

مقياس جونسون لاختبار تنوع المفردات في النص

---

312 – نفسه : 95 .

313 – نشير إلى أننا نعتمد في هذه الدراسة الخطوات الإجرائية نفسها التي اعتمدها الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح في كتابه ( في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ) .

314 – ينظر نموذج الجدول في الصفحة التالية .

315 – ينظر: سعد عبد العزيز مصلوح : المرجع السابق ، 96 .

| | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ما | ألهمي | الله | تعالى | إليه | من | استقراء | حال | هنا | العدد |
| وذلك | أن | حروفه | الثلاثة | هي | سبع | وما | تصرف | منها | بتقديم |
| بعضها | على | بعض | وتأخيره | يحتمل | ست | تركيبات | خمسة | منها | مستعملة |
| في | كلام | العرب | وواحد | مهمل | والخمسة | المستعملة | وما | تصرف | منها |
| لا تخلو | تخلو | من | معنى | القوة | والعظمة | بيان | ذلك | أن | مادتها |
| الأصلية | الأولى | سبع | يقال | سبعته | أي | شتمته | ووقعت | فيه | وسبعت |
| الذئاب | الغنم | أي | افترسها | وأكلتها | والسبع | والسبعة | بالضم | الأسد | واللبؤة |
| ويجوز | إسكان | الباء | فيهما | قال | الشاعر | لسان | الفتى | سبع | عليه |
| شداته | وجاء | في | كلامهم | أخذه | أحذ | سبعة | بسكون | الباء | أي |
| أخذ | لبؤة | وإنما | قالوا | أخذ | سبعة | و لم | يقولوا | اخذ | سبع |

مرجع النص: سكردان السلطان ، الصفحة: 16و17 الجدول (1) .

عدد الأنماط : – 68 .

عدد التحققات: – 100 .

نسبة التنوع : – 0,68 %

ونشير قبل حساب نسبة التنوع إلى جملة المقاييس التي اعتمدناها في تحديد مصطلح الكلمة:

أولا: أخذنا بمفهوم الكلمة كما هي في اصطلاح النحويين؛ اللفظ الموضوع لمعنى مفرد"[316].

ثانيا: احتسبنا الفعل كلمة واحدة مهما مهما تعددت أزمنته (ماضي، أو حاضر، أو مستقبل) .

ثالثا: عددنا الاسم كلمة واحدة سواء كان مفردا، أو مثنى، أو جمعا، وسواء كان مذكرا، أو مؤنثا إلا إذا كان المذكر من غير جنس المؤنث .

رابعا: إذا دلت الكلمة على أكثر من معنى معجمي على جهة الاشتراك اللفظي وهو ما يعرف في البلاغة العربية على مستوى المفردة الواحدة بطباق الإيجاب " اتفاق الضدين في اللفظ واختلافهما في المعنى " [317]. اعتبرت كلمات مختلفة، أي أنماط .

---

[316] – شرح ابن عقيل: على الألفية ابن مالك ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة القرآن، القاهرة، ج1.

3/- حساب النسبة:

3-1: حساب النسبة الكلية لتنوع المفردات:

يمكن الحُصول على النسبة الكلية للتنوع بطريقتين:

الطريقة الأولى:

قسمة عدد الأنماط المتحصَّل عليها على مستوى العيِّنة كلها في الجداول النهائية على مجموع كلمات العيِّنة، والبالغ عددها (3000 كلمة) .

وكانت النتيجة كما يلي:

مجموع عدد الأنماط في العيِّنة هو 1134 كلمة (types) .

مجموع كلمات العيِّنة هو 3000 كلمة (token) .

أي : $\frac{1134}{3000} = 0,37$ .

إذن نسبة التنوع الكلية هي: 0,37 .

الطريقة الثانية:

قسمة مجموع نسب التنوع المتحصَّل عليها على مستوى كل جدول على مجموع الجداول ( 30 جدولا ) .

مجموع نسب التنوع على مستوى الجداول هو 11,34 .

مجموع عدد الجداول هو 30 جدولا .

أي: $\frac{11,34}{30} = 0,37$ .

إذن نسبة التنوع الكلية هي: 0,37 .

التعليق:

يمكن إجمال ملاحظاتنا على النتائج في نقطتين رئيسيتين:

أولا: إن ثبات نسبة التنوع المتحصَّل عليها (0,37) رغم تعدد طرق حسابها (الطريقة الأولى، والطريقة الثانية) دليل على صِحَّتِها .

---

[317] – يوسف أبو العدوس: المرجع السابق ،132 .

ثانيا: إن نسبة (0,37) تعتبر نسبة عالية بالقياس إلى المجموع الكلي لكلمات العيِّنة البالغ عددها(3000كلمة)، وهو ما يُنمُّ عن اتساع حجم الثروة اللفظية لدى الكاتب، وإن كان ذلك يبدو أمرا طبيعيا في عصر يُوصف بأنه " عَصرُ البديع " [318] كان جُلُّ اهتمام كُتَّابِه " تجويد إنشائهم الديواني كَونه مظهرا من مظاهر السلطان " [319]، واستخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير "[320].

ومع ذلك نُقِر بأن الحُكْمَ على نسبة تنوع المفردات في أسلوب الكاتب، وأسلوب أي كاتب يبقى ناقصا في ظل غياب أساليب أخرى يمكن المقارَنَةُ بينها .

3-2: إيجاد نسبة تناقص التنوع:

وأمكننا تحقيق ذلك بـ :

أ- تقسيم العيِّنة إلى ستة أجزاء متساوية ؛ بمقدار (500 كلمة) في كل جزء .

ب- حسبنا نسبة التنوع في كل جزء من هذه الأجزاء الستة .

ج- قسمنا حاصل مجموع نسبة التنوع لهذه الأجزاء على العدد ستة (06) وهو عدد الأجزاء .

فتوصلنا إلى النتائج التالية ( يُنظر: الصفحة الموالية ) .

الجدول رقم(2)

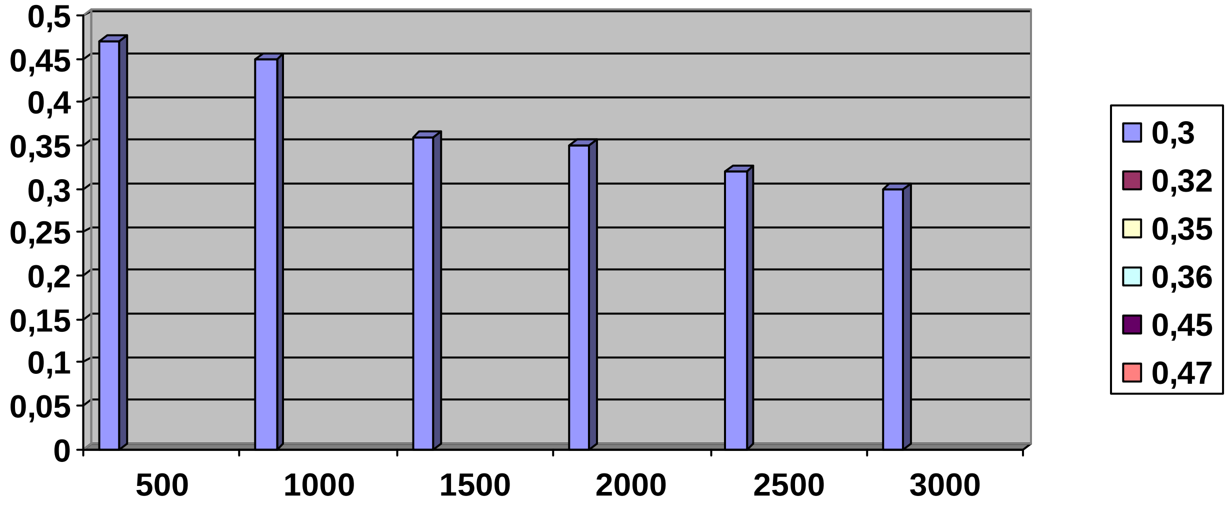
| نسبة تناقص التنوع بين الأجزاء | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الجزء 1 | الجزء 2 | الجزء 3 | الجزء 4 | الجزء 5 | الجزء 6 |
| 0,47 | 0,45 | 0,36 | 0,32 | 0,35 | 0,30 |

318 –خالد إبراهيم يوسف :الشعر العربي أيام المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1425هـ ،2004م ،326 .

319 – ينظر: عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي، دار الفكر العربي، دمشق، ط1، 1425هـ-2004م ،577 .

320– شوقي ضيف: الفن ومذاهب في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط6، 1971م ، 379 .

منحنى نسبة التناقص في أجزاء العينة الستة(06) .




التعليق:

نسجل الملاحظات التالية:

أولا: إن نسبة التنوع ليست ثابتة بين أجزاء العيِّنة الستة.

ثانيا: يطغى على نوع التغير الحاصل على مستوى أجزاء العيِّنة طابع التناقص باستثناء الجزء الخامس، الذي ارتفعت فيه النسبة إلى (0,35) بعدما نزلت في الجزء الذي سبقته (الجزء الرابع) إلى (0,32) وهي حالة استثنائية لا يمكنها أن تبطل الحكم الغالب .

ويمكن رد هذا التناقص إلى سببين أساسيين:

أما الأول: فكون التناقص ظاهرة عامة تحكم العلاقة ما بين الأنماط والمجموع الكلي لتحققات النصوص [...] مادام احتمال تكرار الكلمات يزيد بزيادة طول النص [321] .

والثاني: طبيعة الكتاب في حد ذاته الذي يعتبر عدية الكاتب إلى السلطان ، مما جعله يختار فيه كلمات ظريفة، ومألوفة تتناسب ومقامه الشريف .

3-3: إيجاد منحنى نسبة التراكم في العيِّنة :

وحصلنا عليها بانتهاج الخطوات التالية :

اولا: تقسيم النص إلى ستة أجزاء متساوية بمعدل (500 كلمة) في كل جزء .

---

[321]- ينظر: سعد عبد العزيز مصلوح ، المصدر السابق ، 109 .

ثانيا: إيجاد نسبة الأنماط إلى تحققات الجزء الأول؛ بقسمة عدد أنماطه وهو: 237 على المجموع الكلي لتحققاته، وهو:500 كلمة ؛ أي: $\frac{237}{500} = 0,47$ .

ثالثا:حسبنا نسبة أنماط الجزء الثاني بالطريقة نفسها المتبعة في الجزء الأول :

$\frac{228}{500} = 0,45$ .

رابعا: قسمة مجموع عدد الأنماط في الجزأين (الأول والثاني) على المجموع الكلي لتحققاتها .

لنحصل على نسبة التراكم في نهاية الجزء الثاني بـ :

$\frac{(237 + 228)}{1000} = \frac{465}{1000} = 0,46$ .

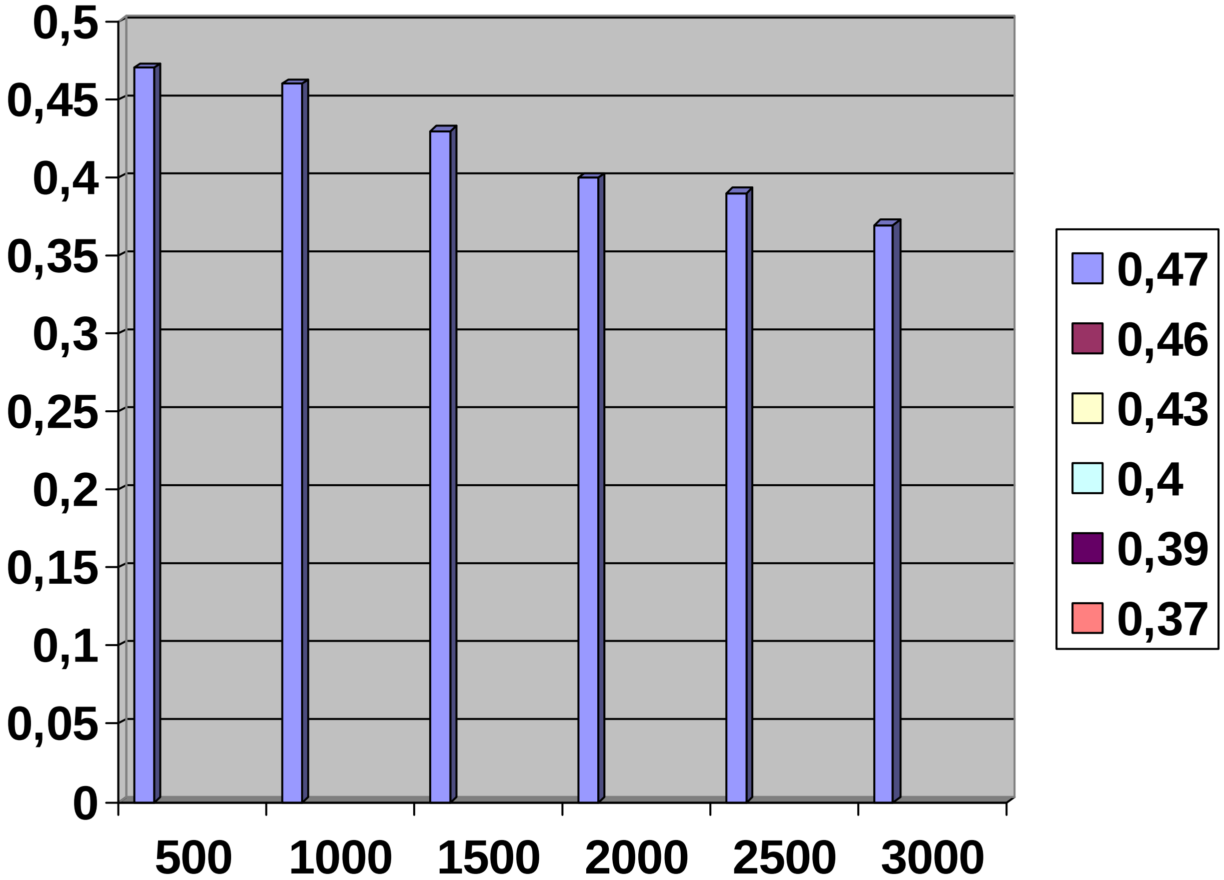
وهكذا الحال مع بقية أجزاء العينة الأربعة .

وقد توصلنا بعد حساب نسبة التراكم حتى نهاية الجزء السادس إلى النتائج المُدوَّنة في الجدول رقم(3)، والتي يُجسِّدُها المنحنى البياني (الشكل رقم 2) في الصفحة التالية .

الجدول رقم(3)

| نسبة تراكم التنوع بين الأجزاء | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الجزء 1 | الجزء 2 | الجزء 3 | الجزء 4 | الجزء 5 | الجزء 6 |
| 0,47 | 0,46 | 0,43 | 0,40 | 0,39 | 0,37 |

منحنى نسبة التراكم في أجزاء العيِّنة .




الشكل رقم(2)

التعليق:

يُظهر لنا الجدول رقم (3) أن نسبة التراكم في أسلوب الكاتب على تغيُّرِها تبدو أقل انحدارا من نسبة التناقص لديه، والمتأمل في إحصائية النسب في الجدولين رقم(2) ورقم(3) لا يلبث أن يكتشف ذلك .

والملاحظة الثانية التي نسجلها هي الفارق في نسب التراكم بين أجزاء العيِّنة الستة ، الذي يكاد يكون ثابتا؛ إذ يصل في حده الأقصى كما هو واضح بين الجزأين الثاني والثالث، والثالث والرابع إلى (3) أجزاء، في حين يتجاوز هذا الحد بأضعاف في نسب التناقص؛ حيث يصل الفارق إلى(09) أجزاء؛ كما هو الحال بين الجزأين الثاني والثالث.

ومرد ذلك في تقديرنا – هو الفرق في قياس النِّسبتين (نسبة التناقص، ونسبة التراكم)، حيث يتم حساب نسبة التناقص على مستوى كل جزء بمعزل عن الأجزاء الأخرى، بينما يتم حساب نسبة التراكم على مستوى كل جزء بإشراك بقية الأجزاء .

والتمثيل البياني في الشكلين رقم(1) و(2) يجسد ذلك بجلاء .

والملاحظة المشتركة بين نسبتي التراكم والتناقص هي أن عدد الأنماط (types) في كليهما يقل بطول النص التحققات (tokons)، أي كلما كان حجم العيِّنة كبيرا كان عدد الأنماط فيها اقل، وهي ظاهرة عامة تحكم العلاقة بين الطرفين كما أسلفنا .

ومع ذلك فإن ظاهرة تنوع المفردات تشكل أحد الملامح الأساسية التي طبعت أسلوب الكاتب وقد كشفت عن سعة اطلاعه على شتى أنواع العلوم والمعارف في زمانه.

# الخاتمة

**الخاتمة**

نوجز نتائج بحثنا في موضوع المناقب في النقاط التالية:

1-إن أدب المناقب مفهوم واسع لا يمكن اختزاله في دلالته على أخبار وحكايات تخص الصحابة والصالحين.

2-إن أدب المناقب له أصل في التراث العربي الإسلامي لارتباطه بمرجعياته الأساسية (القرآن الكريم والسنة النبوية).

3-إن النص المنقبي يقوم على دعامتين أساسيتين هما :

4-الحدث الخارق والشخصية المثالية.

5-إن البعد العجائبي يمثل أحد المكونات الأساسية في بناء النصوص المنقبية.

6-إن النص المنقبي يحتوي أبعادا ثقافية تتجاوز البعد الأخلاقي والقيمي الذي وضع له.

7- إن المناقب لا يمكن حصرها في فئة أو طبقة محددة من طبقات المجتمع.

8-إن النص المنقبي يرتكز على تضمين النصوص الدينية (الآيات القرآنية والأحاديث النبوية).و الاستشهادات الشعرية.

9-إن النص المنقبي يعتمد آليات السرد القصصي والحكائي بشكل واسع .

10-إن النص المنقبي بتوظيفه للرموز يرمي إلى تحقيق غايات رمزية ودلالية بعيدة.

11-إن النص المنقبي بانفتاحه على نصوص غيرية ومعرفية كثيرة يظل أحد المصادر الدفينة الصالحة للدراسات التاريخية، والاجتماعية، والانثروبولوجية.

ومع ذلك نقر في خاتمة هذا البحث بان ثمة قضايا أخرى وأسئلة عميقة ترتبط بهذا الموضوع لم يتيسر لنا إيجاد جواب نهائي لها بيد أن إيماننا بأن هذا البحث على تواضعه ما هو إلا بداية لبحوث لاحقة، يجعنا نثير هذه التساؤلات عسى أن يأتي بعدنا من يتوفر على أدوات معرفية ومنهجية أكثر فاعلية تسعفه على كشف ما لم نصل إليه.

ومن جملة التساؤلات:

- ما هي الحدود الفاصلة بين هذه النصوص وأدب التراجم والسير؟
- أين تكمن حدود الشفوي والكتابي في هذه النصوص، التي توصف بأنها مزيج بين الممارستين ( الشفوية والكتابية) ؟
- كيف نفسر بروز هذه النصوص في أزمنة، وظروف تاريخية معينة دون سواها ؟

وهل صحيح أن انتشار هذا الصنف من التآليف (كتب المناقب) ما هو إلا نتيجة حتمية أفرزتها عصور الانحطاط ؟ ومؤشر صريح على وجود أزمات ؟

- ما هو المنهج الأنسب لمقارنة هذا النوع من النصوص ؟

هل هي المناهج السياقية التي تسعى إلى تفسير الظواهر الأدبية ضمن سياقاتها التاريخية والاجتماعية ؟

أم هي المناهج النسقية واللسانية التي تعتبر النصوص أنظمة معزولة عن كل المؤثرات الخارجية، وغايتها البحث في شبكة العلاقات بين الدوال ؟

نأمل في الأخير أن تحفز هذه الأسئلة الدارسين على البحث في الموضوع بأدوات وآليات أفضل، أفقيا من خلال تتبع الظاهرة عبر مراحل تاريخية لرصد الثابت والمتحول على مستوى هذه النصوص، وعموديا من خلال مدونات مفردة تتيح فرصة التعمق في الموضوع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# قائمة المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم ( برواية ورش عن نافع ) .

**1- المصادر :**

– أحمد بن أبي حجلة التلمساني : سكردان السلطان : تحقيق، علي محمد عمر، مكتبة الخا نجي، القاهرة، ط 1، 1421 هـ – 2001 م .

**2 – المراجع :**

– أحمد الغبريني : عنوان الدراية في من عرف من علماء المائة السابعة ببجاية، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ط1، 2007 م .

– ابن جني : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ج1 .

– السيِّد الشريف الجرجاني : التعريفات، مؤسسة الحسنى، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1427 هـ –2006 م.

– الترمذي : نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق : عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1992، ج 3 .

– شرح ابن عقيل: على الألفية ابن مالك تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة القرآن، القاهرة، ج1.

– عبد الرحمن بن الجوزي : ذم الهوى، تحقيق : خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1424 هـ – 2004 م .

– أبو عبد الله التميمي: المستفاد في مناقب العُباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق: محمد الشريف ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط 1، 2002 م .

– ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 2003 م / 1424 هـ، ج 2 .

– المتنبي :( الديوان ) بشرح : مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ / 2003م، ج 2 .

– محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال السَّلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، المكتبة العتيقة، تونس، ط2 .

– ابن مريم التلمساني :البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان :تحقيق، محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986 م .

- ابن منظور : لسان العرب : تحقيق : عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م – 1424 هـ .

– إبراهيم القادري بوتشيش : تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سبتمبر، 1994 م .

– أماني سليمان داود: الأسلوبية والصوفية، دار مجدلاوي، عمّان، الأردن، ط1، 1423 هـ– 2002 م .

– أنس داود: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ط3، دار المعارف، مصر، 1992م

– خالد إبراهيم يوسف : الشعر العربي أيام المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2003 م .

- -سعد عبد العزيز مصلوح : في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، عالم الكتب القاهرة، ط3، 1422هـ- 2002م .

- سعيد يقطين : الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1997 م .

- السيد تقي الدين: الأدب ماهية وفائدة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت

- شوقي ضيف: الفن ومذاهب في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط6، 1971م.

- عبد الرحمن بن الجوزي : ذم الهوى، تحقيق : خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1424 هـ - 2004 م .

- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4 1400 هـ ، 1980 م .

- عبد الرحمن تبرماسين : البنية الإيقاعية للقصيدة في الجزائر، دار الفجر، القاهرة، ط1 2003 .

- عبد العاطي كيوان : التناص القرآني في شعر أمل دنقل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، 1419هـ - 1998 م .

- عبد الله الغذامي : النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط 3، 2005 .

- عمر محمد طالب : عزف على وتر النص الشعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2000 .

– عمر موسى باشا تاريخ الأدب العربي المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1425هـ 2004 م .

– فتحي فطوم : 7 سبعة الرقم المقدس، دار الينابيع، ط1، 2003 .

– محمد مفتاح : في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1920.

– محمود مصطفى : أهدى سبيل إلى علم الخليل العروض والقافية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1997 .

– مصطفى حركات : الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر، دط، دت .

– مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1421هـ/ 2000 م، ج 2 .

– الموسوعة الشعرية ( قرص مدمج )، الإصدار الثالث، 2003 م .

– يوسف حسين بكار : بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 2، 1413هـ ، 1983م .

- يوسف أبو العدوس: البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1 ،1999 .

**3– المجلات والدوريات :**

– إبراهيم جنداري جُمعة : الإيقاع في القصة القرآنية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 379، السنة 2002 م . 1423 هـ .

– صلاح الدين الزعبلاوي: الفعل تعريفه وأقسامه وأبوابه وشأنه في التعبير (مجلة التراث العربي)، العدد: 39 و40 نيسان وتموز .

– عبد الله أبو هيف : مصطلحات تراثية للقصة العربية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 48، السنة 12، تموز( يوليو) 1992 م . المحرّم 1413 هـ .

- عبد الله أحمد بن عتو : مشكل المنهج في قراءة بعض الكتابات المنقبية بالمغرب، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الأول، سبتمبر 1996 م .

- محمد الكتاني : مفهوم الأدب في أبعاده الثلاثة، الأكاديمية (مجلة أكاديمية المملكة المغربية)، العدد 12، 1995 .

- محمد منصوري : فن التراجم والسير في كتاب زهر الآداب، مجلة الفضاء المغار بي (جامعة تلمسان) العدد2، صفر 1425 هـ / 2004 م .

– لؤي خليل : الكرامات في التراث الإسلامي ( النموذج الأندلسي )، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 97، السنة الرابعة والعشرون، آذار 2005 م – 1425 هـ .

**4 – الرسائل الجامعية :**

– محمذن ولد محبوبي : أدب المناقب والكرامات في بلاد شنقيط، رسالة دكتوراه مرقونة (جامعة وهران) ،2002 –2003 م .

# المحتويات

## المحتويات

# الفصل الثالث : النص المنقبي مقاربة أسلوبية